SFDAS

Section française de la direction des antiquités du Soudan

cnrs

dépasser les frontières

AMBASSADE
DE FRANCE
AU SOUDAN

Liberté
Égalité
Fraternité

UMIFRE

Unités mixtes des instituts
français de recherche à l'étranger

This translation is provided by the French Archaeological Unit in Sudan for research purposes only

No reproduction or copy is authorized unless specific request is addressed at khartoum.sfdas@gmail.com

©SFDAS All rights reserved

National Corporation for Antiquities and Museums, PO Box 178, Khartoum, Soudan
Tél. et fax (+249) 183 786 156 / sfdas@sfdas.com / www.sfdas.com
Ambassade de France à Khartoum – Service de la Valise diplomatique
13, rue Louveau, 92438 Châtillon Cedex

العمارة الجنائزية الكوشية

الوحدة الأولى

الهرم والمصلى الجنائزي

منذ نهاية القرن السابع قبل الميلاد، وقبر الملك بعانخي بمقبرة الكرّو وحتى القرن الرابع الميلادي، فقد عرف الهرم الجنائزي تطوراً سواء من حيث الناحية المعمارية أو من حيث مكانته في المجتمع الكوشي. أولاً: فقد خُصِّص لقبور بعض أفراد العائلة الملكية المحصورة في هذا المجال المحدود في عهد الأسرة الخامسة والعشرين، ثم بدأ ظهوره بعد ذلك بواجهة بعض المقابر النبتية الخاصة قبل أن ينتشر بصورة واسعة ليشمل النخب من أقاليم ممكلة مروي.

يتم بحث أسباب إقرار هذا الهرم وكذا القوانين التي تحكم إنشاءه في مصر وفي تاريخ كبار رموزها والحكام الكوشيين الذين اتخذوها مراجع لهم[1]. يسمح الهرم، باعتباره رمزاً لميلاد العالم الذي يعرف بالتّل البدائي لمصر الجديدة، بخلق رابط بين القبر والنجم الشمسي. كما كان يحيط به قديماً معبد على الجدار بهدف تكريس عبادة المتوفى وإعطائه إطاراً رسمياً. تأخذ الهندسة المعمارية للمصليات الجنائزية طابع المعابد المروية المخصصة للآلهة الأصلية. يلعب هذا الصرح الهندسي أيضاً، كأداة آيدلوجية وسياسية، دوراً في انتقال السلطة، وصعود ولي العهد للعرش قد يتناسب مع بناءه.

الهيمنة الملكية التي أَضعفت ـ على مر القرون ـ الحق في امتلاك هرم جنائزي، وكذا الاعتراف الاجتماعي بها، جعلا من الهرم علامةً خاصةً ليس فقط مجرد قبر وإنما مجموعة قبور. خلال مرحلة لاحقة من الحقبة سنشهد انتشاراً واسعاً للبناءات الزائفة[2] والتي لا تحسب أطوالها بالأمتار وإنما بالسنتمترات معلنةً عن نوع من الحرِّية في مفهوم الهرم، بل عن نهاية مرتقبة أيضاً. يظل الاقتباس ومن ثم الاختيار بواسطة شريحة أكبر من السكان، والعمر الطويل للأثر الهرمي وانتشاره استثناءً في التقاليد الجنائزية، والتي تعد منذ آلاف السنين في العصور النوبية مميزاً لقبور وضرائح الموتى.

كشاهد على تطور ديني لاحق، فإن الهرم الكوشي ليس سوى أحد عناصر التغيير الملكية النوبية التي ولدت وترعرعت بتأثير النماذج المصرية.

الهرم: رمز للملكية

1 فرانسيني 2010، صفحة 258
2 ريلي وفرانسيني 2010، نفس المصدر 2011

إذا كانت الأهرامات الملكية النوبية معروفة وتم اكتشافها على يد رحالة القرن التاسع عشر، فلا يمكن لأحد أن يتخيل أنّ بإمكان الإقليم أن يكون مسرحاً لاكتشاف عدداً من الأضرحة الملكية وسلسلة مقابر هرمية تم إنشاؤها بعيداً عن العاصمة والمراكز الدينية الكبرى.

في بداية القرن العشرين، أثارت الإنشاءات الجنائزية الخاصة، والتي تم اكتشافها في شبلول وكرنوق على الحدود المصرية السودانية، الشك لدى مكتشفيها الذين اعتمدوا على المراجع المصرية لوصف مصاطب محتملة، أو في ملاحظة قباب المسلمين لافتراض وجود قبة مستديرة تغطي القبر. مع ذلك، وبسرعة فائقة، فقد تمكنوا من التعامل مع الإنشاءات الهرمية، ولكن لم يتم العثور على أي هرم محافظ على ارتفاعه الرئيسي. لم يتم تأكيد هذه الفرضية إلا في وقت لاحق تحت ظل حفريات اليونسكو.

ومنذ ذلك الحين فقد تم صقل معرفتنا بالهرم أو أجزائه حتى وإن كانت مهشمة، كما سهُل على باحثي الآثار التعرف عليه.

1.1 أصل أجنبي

في مرحلة غزو النوبيين لمصر، والذي كان في عهد الملك بعانخي[3]، اعتمد الحكام الكوشيون البنية الفوقية الهرمية لتغطية مقابرهم، على الرغم من أن الفراعنة توقفوا عن اللجوء لهذا العمل منذ ما يقارب الثمانية قرون خوفاً على القبور التي حفرت على هاوية مجرى وادي النيل. لكن ليست هذه هي المباني الملكية التي من شأنها أن تكون بمثابة نماذج، وإنما هي العمارة الجنائزية المصرية والتي تظهر في صعيد مصر والحدود النوبية.

الشكل (1)

فإذا أردنا فهم أسباب هذا الاعتماد؛ فمن المهم أن نضع نهج هؤلاء الحكام الكوشيين في سياق سياسي، حيث كانوا يميلون بتوجهاتهم لعظماء الإمبراطورية المصرية، المستعمر الأسبق، لتعزيز دورهم كقادة على رأس مملكة وليدة، وبناء نوع من الهوية المنتصرة. يستخدم هذا التعزيز الأيديولوجي، الذي يسعى إلى إضفاء الشرعية على سلطة الملك، تاريخ كبار الفراعنة الغزاة وبناة الإمبراطورية الوسطى والجديدة والتي يستعير الكوشيون في بعض الأحيان أسماء تتويجاتهم. يكاد ينسي هذا الخليط من الشرف الخالص والطموحات المحلية الكوشيين هزائمهم وإذعانهم الثقافي الذي ألحقه بهم الفراعنة على أرض النوبة. تجرى عملية استعادة الرموز المصرية والتي تفسر في الإطار الجنائزي على أنها توجه معماري جديد تماشياً مع التراث الضخم لمصر التي تم غزوها حديثاً.

3 كما يشير إليه شاهده الذي تم اكتشافه في جبل البركل (غريمال 1981). كاشتا، الملك السابق له، بالرغم من أنه كان يدعي لقب الفرعون، إلا أن نفوذه لم يكن معروفاً سوى في جنوب مصر (وحتى طيبه)

الشكل (2)

وفقاً لرايزنر[4]، فإنه قد تم تدريجياً بمنطقة الكرّو، حيث أقدم القبورالتّلّية التي تم اكتشافها، إعادة بناء الأجزاء العليا ومن ثم تطويرها إلى المصطبة رباعية الزوايا[5]. شكك كندال[6] في هذه النقطة الأخيرة عندما اختير لإعطاء الملاحظات ومراجعة الصور لعالم الآثار المصرية الأمريكي على ضوء الاكتشافات الجديدة التي تمت بواسطة الآثار النوبية منذ فترة الحفريات السابقة. وفقاً له، فإن رايزنر قد آثر تفسير المصطبة على أنه تقليد للبناءات الجنائزية مع التصنيف والتطوير في مصر، مع ملاحظة أنه لا يوجد أي تقليد للمصطبة في العهد النوبي حتى الألفية الأولى قبل الميلاد. يقترح إذن تفسير هذه الإنشاءات على أنها أهرامات يحتمل أن تكون ذات قاعدة مربعة مرتفعة (الشكل - 1). تسمح هذه الفرضية إذن بتوضيح الهندسة الاستثنائية ذات المنصة لهرم الملكة أماني توري (الشكل – 2) والذي كاد أن يربط، بعد عدة قرون، رموز الماضي[7]. لكن التطور المتأخر الذي شهده تصميم القبر بمنطقة الكرّو، يكاد لا يؤثر المرور أو عدمه بخطوة عمل المصطبة على ظروف ظهور الهرم الكوشي في منطقة النوبة، والذي ظهرت اختلافاته على الفور مقارنةً مع النماذج المصرية القديمة.

عقب ذلك، فقد اختار كل ملوك الأسرة الخامسة والعشرين هذا النوع من الأضرحة بموقع الكرّو وحتى عهد الملك تهارقا، والذي قرر إنشاء مقبرة ملكية جديدة بنوري[8] على ارتفاع 25 كيلومتراً عن الضفة المقابلة.

2.1 العمارة الهرمية في النوبة

1.2.1 النموذج المصري للنوبة السفلى والوسطى

نموذج الأضرحة الهرمية الخاصة في مصر في عصر المملكة المصرية الحديثة، والذي كان سائداً، على سبيل المثال في مقبرة دير المدينة[9]، مستخدم أيضاً في المستعمرة النوبية. تشير بعض الأهرامات

---

[4] دونهام 1950

[5] شهدت المقبرة أطواراً كثيرة من النهب، الآثار لم تجلب التأمين الدائم لإستمرارية بين القبور التّلّية القديمة والقبور الهرمية المجاورة لها. لتلخيص النظريات الأساسية للتفسير، من خلال أطروحة مقابر كرمة وحتى العهد ما قبل النبتي، أنظر إدوارد 2004، ص 118. نلاحظ أن مقابر الكرّو يجب أن تكون متبوعة بزركشة خارجية بدائية من الحجارة.

[6] كندال 1999

[7] هذه الفكرة كانت موجودة مسبقاً لدى دونهام 1957، ص 120

[8] عثرنا فيها على معالم جنائزية لتسعة عشر ملكاً وخمسين ملكة. التفسيرات الأساسية لاختيار تأسيس مقبرة ملكية جديدة على هذا الموقع مشتركة بين كندال 2008، الذي يرى أن فيها رمزاً دينياً مرتبطاً بظاهرة نجمية، وتوروك (2001، ص39) الذي يربط موقع المقبرة بمعبد سنام المجاور. يلين (2009، ص 14) يتفق مع فرضية كندال،ويلاحظ أن قرب معبد سنام يمكن أن يكون مرتبطاً ليس فقط بالمعبد وإنما بالمقبرة المتاخمة، والتي تحوي قبوراً لبعض عائلة الملك تهارقا.

الصغيرة (الشكل – 3) التي تقع على منحدرات المياه الشديدة، تم بناؤها من الطوب الخام، إلى مواقع بعض الأمراء المصريين[10] (غير الأصليين) وكذا النخب الإدارية والدينية بالمؤسسات المصرية[11].

الشكل (3)

نجد في المقبرة الجنوبية بمروي، حيث دُفِن جزء من المقابرالملكية النبتية، أكبر تجمع للبناءات الهرمية النبتية الخاصة. ولكن من خلال اكتشافات حديثة بالإقليم[12]، الكوة[13] وتُمبس[14]، تجدر الإشارة إلى ظاهرة مشابهة في بعض المراكز المحلية الكبيرة. ومن بين أحدث هذه الاكتشافات، توجد معالم تمبس الهرمية، حيث مقبرة المملكة المصرية الحديثة، والتي سلمت قبراً يخص أحد الأعيان المصريين يدعى سيامون، مدفون مع زوجته ميران.

يحتوي البناء الهندسي على فناء ومعبد ذو مدخل رأسي، وفوقية هرمية من الطوب بعرض سبعة أمتار، وارتفاع يصل إلى عشرة أمتار على الأقل. وعلى بعد بضعة أمتار، توجد مقبرة نبتية بديلة محافظة في بعض الأحيان على النموج الهرمي والمعبد الملتصق به.

2.2.1 الطراز الكوشي

لا يتجاوز عادةً ارتفاع الأهرام الملكية الكوشية الثلاثين متراً، باستثناء نصب تهارقا الذي بني على مرحلتين، حيث وصل ارتفاعه إلى خمسين متراً. تغَطى بعضاً من هذه الأهرام والنصب الأثرية من الأعلى بقمة حجرية بخلاف تلك الموجودة في التقاليد المصرية ذات الشكل المدبب[15]، والتي غالباً ما يوضع عليها قرص شمسي حديدي أو تمثال[16]. الشكل الظاهري للبناء الأثري عبارة عن هرم مبتور القمّة بغرض تطوير منصة وضعت عموماً بتقدير $9/10^{e}$ من الشكل النظري للبناء. يشير ما تبقى من السواري الخشبية[17]، والتي تم اكتشافها في مركز بعض المباني الأثرية، إلى احتمال استعمالها كميزان على طريقة (الشادوف)[18] الذي يسمح برفع وتحريك الكتل الحجرية عند البناء. ما عزّز هذه النظرية

---

[9] بروبير 1959، هوديل هوينس 2000.

[10] نجد منها نموذجاً في الدبيرة الغربية مع قبر أمينمحات، أمير تهخيت، الذي عاش تحت حكم تحتمس الثالث (سوديربيرغ 1963 ب، الشكل 2، نفس المصدر 1991)

[11] في أنيبا (ويغول 1907، ص1 1/63)، صولب (شيف جيورجيني 1971، ص81، الشكل 119) و صاي.

[12] ولسبي 2003 ب

[13] نفس المصدر 2010، نفس المصدر 2011.

[14] سميث 2007

[15] هنكل 1982 أ، ص1، 2أ

[16] نفس المصدر1997، 411.

[17] السارية اللبنانية تم جلبها إلى النوبة في عهد الملك تهارقا، كما موضح على الشاهد (السطرين 3و4) بالكوّة لإفتتاح معبد آمون 680 ق.م (عيد وآخرون 1996، ص 178)

[18] هذا الجهاز عرف على ضفة النيل منذ القرن الخامس عشر ق.م

هو اكتشاف النقوش الأثرية على حائط معبد بج 2 والتي تمثل $1/10^{e}$ مكونةً هذا الشكل الأثري الاستثنائي.

الشكل (4)

يحتوي الهرم الكوشي على جوانب تمثل زوايا حادة جداً (65 إلى 73 درجة[19]، على عكس الأهرام في الإمبراطورية القديمة بمصر، حيث كانت لا تتعدى 52 درجة كحد أقصى). يعطي هذا الهيكل مظهراً مهيباً للمبنى على الرغم من بساطة أبعاده لمن يشاهده من على سطح الأرض، لأن الجدران تظهر على الشكل عمودي تقريباً. الجهة الشرقية لهذا المبنى، والتي تستقبل رمزياً شروق الشمس، محاطةً بمعبد يتكون من بوابة ضخمة ومن ثم غرفة وحيدة. يمكن أن تضاف مباني أخرى ملحقة لهذا البناء الهندسي الجنائزي، مثلاً؛ صفاً من الأعمدة أمام المدخل الرئيسي، جداراً منخفضاً يحيط ب(تيمينوس)[20]، كما يمكن أيضاً إضافة مدرج منحدر بمثابة مدخل لمنصة المكان المقدس (الشكل - 4).

سَمَح العمر الطويل لمقبرة كمقبرة مروي الشمالية للبناة بتطوير الحلول المعمارية وكذا معالجة الأوجه الهرمية. هنكل، مهندس معماري مختص في معالجة المباني، قسّم هذه الأهرام إلى ثلاث مجموعات مختلفة[21]: أهرام ذات جوانب مدرجة، أهرام ذات جوانب ناعمة الأسطح أو ذات نتوءات مستديرة، وأخيراً أهرام ذات أسطح ناعمة ملساء. هذا التقسيم يشمل معظم المباني الأثرية بالرغم من وجود بعض الاستثناءات، بالأخص في القرن الأول قبل الميلاد.

الأدوات المستخدمة في تطوير هذه البناءات تم تطويرها هي الأخرى على مر القرون. ففي منطقة الكرّو ونوري، تحتوي الأهرام على واجهات صخرية منحوتة ومملوءة بحجارة أخرى مشذبة (الشكل - 5). كذلك تحتوي أقدم البناءات على واجهات مزخرفة من الحجارة المحفورة مكونة من عدة صفوف سميكة، بينما الحشوة الداخلية للصخور مكونة من رصف حجري غير متجانس. في القرن الثاني الميلادي، تم استبدال هذا النوع من الواجهات الخارجية بالطوب المحروق، أما بالنسبة للنصب الأثرية الملكية في الآونة الأخيرة، فقد أصبحت تبنى من قطع حجرية غير منحوتة والتي تشبه بناءات الحجارة الجافة. تعزز طبيعة الحشوات غير المنتظمة من تكدّس البناء وتزيد من خطورة سقوطه، عدد كبير من البناءات تسقط إما لعوامل طبيعية أو تنهار جزئياً.

---

[19] هنكل 1997

[20] بعيداً عن الجهة التي تحوي الرموز على حائط يفصل المكان المقدس، من المرجح أن في هذه البيئة الإستثنائية من النوبة ومبانيها من الحجر الرملي الناعم، تيمينوس ساعد أيضاً في الحد من انجراف التربة وتدهور المعالم الأثرية.

[21] هنكل 1997،ص 411، الشكل 67.

الشكل (5)

تغطى معظم الأضرحة، في الأصل، بطبقة سميكة (1 - 2 سم) تشبه الأسمنت، هذه الطبقة نفسها مغطاة بطبقة أخرى رفيعة منقوشة. تقدمان هاتين الطبقتين الحماية اللازمة للواجهة المصنوعة من الحجر الرملي القابل للتفتت بصورة كبيرة. كما كانت تساعد هذه الطبقة في بعض الحالات في اخفاء العديد من العيوب الهندسية للبناء، كالذي يستخدم فيه الطوب على سبيل المثال. تشير التحاليل التي أجريت على طبقة الطلاء الخارجية إلى أن اللون الأساسي لبعض الأهرام هو اللون الأحمر، وقد زينت قاعدتها بإفريز النجوم البيضاء. أمّا القمة، والتي عادةً ما تأخذ اللون الأصفر، يمكنها استيعاب عملية صقل قرصي باستخدام الخزف.

يعتبر الهرم الملكي إشارة للواجهة التي تغطي قبراً محفوراً، حسب التقاليد، تحت الأرض. مكان هذا القبر يحدده الملك قبل مماته ويشرف على بنائه. كما كان من المقبول أيضاً أن يشرف ولي العهد على بناء النصب التذكاري للحاكم أو الملك المتوفى. وجدت نقطة التحول هذه أهمية سياسية وصار العمل بها بصورة شرعية إلى أن تم إدراجها ضمن قائمة المهام الرسمية. بعضاً من المعالم الأثرية لا تغطي المدرج الذي يؤدي إلى القبر[22]، لذلك فإن تأخرهم من حيث المآتم، لا يمكن إثباته رسمياً. التسلسل التاريخي المتفق عليه عموماً والذي يتضمن حفر الشقق الجنائزية، متبوعاً بمراسم الدفن وردم مدخل القبر ومن ثم المبنى الهرمي، يمكن أن يكون موضع استفهام نسبة للتعديلات المعمارية المضافة إلى بعض المباني الأثرية والتي من الواضح أنها تمت بإشراف من الحاكم نفسه وليس من ولي عهده. يشير مثال تهارقا وإيريك أمانوت بنوري، واللذان شاهدا هرميهما قد كبرا نتيجة مباني أخرى مضافة تغطي الجزء الأول، إلى أن الملك التالي لا يتولى سوى بناء المعبد فقط.

ظل الهرم الكوشي لما يقارب الألف عام التعبير المعماري لتطلعات الملك المؤلّه والذي أصبح خالداً، ويطمح في اللحاق بالنجم الشمسي من خلال نضاله اليومي ليولد من جديد. بينما تقل المقترحات المعمارية للبناء وتتفكك جودة المواد المستخدمة في بناءه بمرور الزمن، ظل الشكل محافظاً على هيئته حتى منتصف القرن الرابع الميلادي فقط للاستخدام الجنائزي[23]، ما يؤكده ما لا يقل عن مائتين من المباني الملكية.

---

[22] فرانسيني 2010ج، ص 251، الشكل 336

[23] في علم الآثار المروية، هنالك إكتشافين فقط للمعالم غير الجنائزية توحي باتفكير في الشكل هرمي: هيكل رباعي الزوايا تم اكتشافه في أمام المعبد II أ بالمصورات الصّرفة (هينتز 1968، ص1. 41 أ)، وكذا منصة تمت صيانتها في سوبا (ويلسبي – سجوستروم 1993، ص 13)

2. اعتماد الهرم في القطاع الخاص

النتيجة الأولى مستمدّة من التوزيع الجغرافي لمواقع النوبة (خريطة - 2): الهرم عبارة عن الشكل هندسي باستثناء المقبرة الملكية الثلاثية ومقبرة النخبة بمروي والتي تستغل جزئياً ارتفاعات النتوءات الصخرية في أراضي الكربة.

نقل النصب الهرمية الملكية إلى المقابر الخاصة كان فعال جداً خلال فترة ما، ولكن ظل محدوداً جداً مشيراً إلى رقابة صارمة لحماية هذا الحق. نجده في صادنقا قطاعي 1 و 2 وغرباً[24] وكذا في الكوة[25] وتمبس[26] وتبو[27] ومروي[28]. تم اكتشاف بناءٍ معزولٍ تم بناؤه بطريقة غير معتادة من صخور النيس خلال حفريات "أمري- كربكان" في الإقليم الذي يتبع للشلال الرابع[29].

بدأ الدخول إلى النصب الهرمية خلال الفترة المروية في التوسع، كافلاً للمبنى معاملة أقل قانونية. فمن الصعب أن نفهم كيف كان هذا الشكل من الديمقراطية نتيجة لتطور الفكر الديني، أو علامة على تعزيز سلطات المحافظات في مواجهة الحكومة المركزية.

1.2. هرم القبر الفرعوني "المصطبة"

وجد الباحثون، منذ الحفريات الأولى للمقابر المروية الخاصة، صعوبةً في في التعرف على طبيعة الأجسام الهندسية الفوقية التي تمت معالجتها حديثاً. تم وصفها في البدء على أنها مجرد أسوار بسيطة تحيط بالقبور (كما في شبلول). بعد ذلك، تم التعرف على الهيكل التركيبي ذو الغطاء المسطح أو على الشكل القبة (كرنوق)، مع العلم أن القباب الحديثة تدل على مقابر المسلمين. دفعت صعوبة اتخاذ قرار بشأن الطبيعة المحددة لهذه الأغطية، سواء كانت مسطحة الشكل أم على الشكل القبة، بالمخترعين لاتخاذ مسار التسوية. تم اقتباس مصطلح ومفهوم المصطبة من علم المصريات، والذي يعني جميع المنشآت الجنائزية على الشكل فاكهة مثنية إلى الداخل. كما ولدت أسطورة المصطبة الرومانية النوبية، عملية وغامضة في الوقت ذاته، على الرغم من أنّ افتراض وجود الهرم لم يكن مستبعداً تماماً في منشورات بعض المواقع، كفرس على سبيل المثال.

---

[24] شيف جيورجيني 1965، ريلي وفرانسيني 2012
[25] ويلسبي 2010، نفس المصدر 2011
[26] سميث 2007
[27] بونيه 1999 ب، نفس المصدر 2011، ص 288
[28] يلين 2009
[29] ويلسبي 2003ب، 2004أ

الشكل (6)

ليس يقيناً وإنما احتياطاً، تم استخدام نظرية المصطبة على نطاق واسع بواسطة علماء الآثار الذين أشرفوا على عمليات البحث الأثري في المقابر الخاصة والتي، حينها، لم يكن هنالك أي نصب على حالته الأولى (أنظر الشكل 6). ظل هذا الحال كما هو عليه إلى أن تم جمع عدد كافي من العناصر التي تبين الشكل الهرمي. مع ذلك، ظل الاعتقاد بوجود بنائين هندسيين سائداً. وإلى يومنا هذا، فإن الوثائق القديمة التي تخص هذا الموضوع مقتصرة جداً على هيئة صور أو تصاميم لم يتم مراجعتها، لذلك فقد تم اعتماد المصطبة بديلاً عادياً في التفسيرات النوبية. يبدو أن نظرية المصطبة، والتي يمكن اعتبارها هرم مقطوع القمة وبالتالي نصب شمسي؛ لا يمكن اعتمادها إلا في حالات قليلة يتعثر فيها التحقق، الوثائق غير متاحة (شبلول وقصر إبرم على سبيل المثال). نجد في حقيقة الأمر في كل المقابر التي تم من خلالها وصف المصطبة، بناءات رباعية الأضلاع والزوايا ملتصقة بالفواصل الداخلية. كذلك قمم هرمية ومنافذ متجانسة البناء تشير حتماً إلى البناءات الهرمية. هذه العناصر، المتفككة أحياناً والمفسرة بصورة خاطئة، استطاعت تخليد أسطورة القبر الفرعوني المصطبة.

مما زاد هذا التفسير ارتباكاً هو التشويش الذي أنتجته إعادة احتلال بعض المقابر المروية مؤخراً. عليه كان شائعاً في حوالي القرنين الثالث والرابع الميلاديين أن نشاهد قبوراً تعلوها أهراماً تم تخريبها واحتلالها[30]. النصب الرئيسي تم تقليصه إلى سياج والذي يشبه في الحقيقة المصطبة.

أكد التركيز المفرط للقبور في مساحة ضيقة على استحالة وضع مباني فوقية بحجم كبير على السطح. اقترح تريقر[31] أن يتم تغطية القبور بعمل مصطبة صغيرة تتناسب مع حجم القبر أو مقاعد كما في المقابر الحديثة. نعلم اليوم أن عدداً كبيراً من القبور يفتقر للعوامل التي تساعد على البناء على سطحه، خصوصاً وأن عدداً كبيراً من القبور ترتبط مداخلها وتجويفاتها بمبنى وحيد والذي يمكنه أيضاً تغطية مداخل القبور الأقدم جزئياً.

نعتقد أن جميع البناءات الجنائزية المروية، سواء أكانت بالطوب المحروق أو الصخور، كان لديها سمات الهرم. يحتوي الهرم على قاعدة مربعة مما يسمح بجعل قمته مدببة[32]. لا يعني وجود قاعدة مربعة من الصخور أو من الطين المحروق بارتفاعات معينة، بجبل عَدّا[33] على سبيل المثال، أن أعلى الهرم مبني على نفس أبعاد القاعدة. ما بقي من القبور يحمل نفس الخصائص المعمارية كما يوجد بها

---

[30] فولر 1999

[31] تريغر 1969

[32] القباب الإسلامية مثلاً، أحياناً توصف على أنها عودة لاحقة للنموذج الهرمي في النوبة.

[33] هوبر وإدواردس 2012، ص 83

نفس الأساس الموجود في بعض المعالم الهرمية. إذن ليس هنالك ما يدعو لإدراجها ضمن فئة بناءات لم تعرف من قبل في فترة العهد النوبي خلافاً للهرم. هذا الفراغ التاريخي بالإضافة إلى توزيع المقابر بالشكل عشوائي داخل المقبرة، حيث المصطبة لا تحل محل النموذج الهرمي، يبرهن بقوة وجود المصطبة، على عكس الهرم الذي تعتبر أصوله ومراحل تطوره معروفة بالنسبة لنا على امتداد العهد النوبي.

هنالك عاملين أساسيين يجب وضعهما في الاعتبار لفهم أسباب بناء الهرم داخل المقابر الكوشية الخاصة: عكس الهندسة المعمارية للنصب والمعالم الجنائزية الملكية، والتأثير المتزايد بالممارسات الشعبية في الدفن، والتي تمثل تطوراً في المعتقدات الدينية، كما في مصر في العهد الروماني على سبيل المثال. ستبدأ عملية المشاركة التي تتم في النوبة في العهد المروي شيئاً فشيئاً في إدراج الهرم ضمن مجال الإنشاءات الجنائزية الخاصة لنخب المملكة، المرويون في المقام الأول، ومن ثم المحافظات.

إذا كان المَعلم الملكي أو معلم النخبة النبتية يعتبران نموذجين للهرم المروي الخاص، عليه يجب كذلك ألا يهمل التأثير المعماري الجنائزي الخاص على الجانب المصري في نفس الفترة. كما يتضح لنا في حالات عدة، يبدو أن مصر في عهد الرومان لعبت دوراً مهماً في تطوير النموذج الفني والاستخدامات المروية في الفترات اللاحقة. كما نجد أيضاً في المقابر المعاصرة المصرية ذات الشكل الترينوتسي Térénouthis على سبيل المثال، تجهيزات شبه مطابقة من الطوب المحروق[34] مع تشابه كبير في تخطيط الواجهة والمعالم مخصصة لشواهد الموتى[35].

2.2. معاهدات وإنشاءات

الهرم، في الأساس، هو المميز الاجتماعي الذي لا يظهر إلا في بعض المقابر، إضافة إلى ذلك وإلى حد طفيف، معظم القبور المروية لا تحتوي على بناءات فوقية. ينبغي أن يتوفر النصب الهرمي الذي يعلو القبر الخاص على متطلبات تتمثل في القوى العاملة (الرجال) والوقت، تختلف باختلاف حجم القبر. وكذا مواد البناء المتطلبة ومدى توافرها لدى الحاشية في موقع الدفن.

1.2.2 المسح

[34] مكليري 1987، الشكل 1

[35] "هنالك قبور مستطيلة على هيئة نصف هرمية، ونوع ثاني مستطيل ذو سقف على هيئة برميل، وأنواع أخرى على هيئة أهرام [...] معظم البناءات الجنائزية متبوعة بطاولات مائدة القرابين أو المذبح، عادةً ما نجدها على الجهة الشرقية. تم اكتشاف اللوحات الجنائزية في محاريب، في معظم الأحيان متجهةً إلى الشرق [...]" الصاوي 2007، ص 269.

قبل البدء في وضع الأساسات من الصخور، يتم تجهيز الأرضية، وذلك بتفريغ مساحة مربعة ومسطحة على أرضية صلبة إلى حد كاف. عندما يتم بناء المعلم على سطح غير ثابت يكون مهدداً بخطر الانهيار وتغيير الأبعاد، أو في أغلب الأحيان يتم استعادة وزنه ناحية الميل من خليط رملي أو خليط من الخر أو الطوب[36]. على الرغم من أن هذه المعالم أسست في الغالب على الأرض، إلا أنه تبين مؤخراً أن أساسات تم بناؤها من الطوب يمكن أن تندثر في باطن الأرض المتحركة[37].

يجب أن ترسم خارطة البناء أولاً على الأرض، وذلك بتحديد الموقع بدقة وكذا الحجم واتجاه البناء. التقليد الملكي المصري المعروف بمراسم (Pedj-shes)، والذي كان يبدأ بنفس هذه الخطوات، لم يؤكد في عهد النوبة. لكن حقيقة أن الآثار الكوشية استمرت في الاعتقاد بالصفوف النجمية (في حالة عدم اتخاذ النيل كمرجع)، وتستلزم أحيانا بعض قرابين الأساس توضع تحت زواياها، أقرب إلى إثبات أنه أحد الطقوس التي كانت متبعة لدى النبتيين والمرويين. تتطلب عملية بناء هرم خاص من الأقل للأكثر أهمية حضور ممثل لرجل الدين، إذ تتمثل مهمته في تطهير مجال البناء وإعلان قداسة الصرح الجنائزي.

2.2.2. قرابين الاساس

يعتبر اللجوء إلى استخدام قرابين الأساس، خلال الفترة النبتية، طبيعياً، كما هو الحال بالنسبة للمحاريب والقبور الملكية. ففي مقبرة نوري، حظيت جميع الأهرامات، باستثناء هرم تهارقا، بهذا النوع من المواد. مرتبةً في زوايا الهرم الأربع، تتكون هذه القرابين من قطع لحمية من الماشية المذبوحة وجرار تحتوي على مواد طبيعية كالأصباغ وبعض التراب، إضافة إلى لوحات خزفية مزخرفة وشظايا نادرة من الحجر الخام، لهذا كان لا بد من ضمان خلود المَعلم الجنائزي ووضعه تحت الحماية الإلهية. يمكن أن توضع قرابيناً أخرى في زوايا القبر تحتوي هذه المرة على نماذج من الطوب والتعاويذ والتماثيل الإلهية المصنوعة من الفخار بغرض الحماية من الاعتداءات الخارجية.

الشكل (7)

على نهج العصر المروي، كانت الشهادات المنتقاة من القبور الملكية والقبورالخاصة نادرة، لكن البحث عن ودائع الأساس لم يكن دائماً مخططاً له من قبل مختصي الآثار. فعدداً كبيراً من بينها تمت إزالته. أما في ما يتعلق بالقبور الخاصة؛ يلاحظ مختصي الحفريات في بعض الأحيان وجود شظايا وجرار محطمة قد اختلطت مع الكتلة الداخلية التي تساعد في ملء الهرم. لكن الصفة العشوائية

---

[36] فرانسيني 2009أ

[37] فرانسيني 2009أ، نفس المصدر 2010 أ

للاكتشافات تترك مجالاً للتفكير في حطام الواجهة المدمج مع البنية التحتية التي ترتكز عليها المقبرة. أتاحت بعض الجرار المكتملة[38] مجالاً للتفكير في ضرورة وجود الوديعة، بالرغم من أنه لم تكن هنالك منهجية، ولم تكن المقتنيات توضع في واجهة الحفرة كما في فترة العهد النبتي. في العام 2003، أشارت حالة مدرسة بمقابر غرب صادنقا إلى أن التأكد من ملء البناءات الأثرية أمراً مهماً عندما يتم العمل في حفريات المقابر الجماعية المروية. كما أن جرةً قد وجدت في الزاوية الشمالية الشرقية لهرم مروي (الشكل - 7) والذي أنجزت حفرياته الأساسية خلال ما يقارب الأربعين عاماً.

في صادنقا أيضاً ولكن هذه المرة في ما يتعلق بالبناءات النبتية الخاصة بالقطاع رقم 1، تم اكتشاف أنه كان من المعتاد خلط المجوهرات المصقولة مع الأسمنت الذي يساعد في ربط قاعدة البناء الطوبية للبناء الأثري مع الأرض. تمثل هذه الوديعة، والتي عادةً ما توضع في زوايا الهرم، الشكل من أشكال القداسة عند البدء في عملية البناء.

وأخيراً يمكن ملاحظة أن بعض الأغراض التي توضع في الحفر إلى جانب القبور في العهد المروي، يمكن أن تصنف ضمن ممارسات قرابين التأسيس، على الرغم من أنه لا يوجد أي نصب أثري لتغطية القبر[39].

3.2.2 المواد

يعتبر الصخر الحجري ، كما هو معلوم، من أندر وأنبل أنواع الصخور، والمقصود هنا الحجر الرملي النوبي أو الصخر الأسود (الشست). فالحجر الرملي مفضل بصورة واسعة نسبة لسهولة استخراجه وإمكانية تواجده بأحجام مختلفة. يتم جلبه من المنحدرات القريبة من الجبال والجروف الصخرية والتي تقترب كثيراً من نهر النيل. ببساطة، فالأحجار المربعة والمتجانسة أو تلك المزركشة من الخارج، يمكن رصّها فوق بعضها البعض دون الحوجة لربطها بالأسمنت[40].

بالنسبة للشست الأسود، الأقل توفراً، إذ من الصعب توظيف مصطلح "الحجر المقصوب"، كما أن العمل على المواد الخام أشبه بالعمل على الحجر المكسور. لدى الحجر الرملي الأسود، في الواقع، إيجابية عرض الكسور بزاوية قائمة منتظمة بما يكفي لآداء الطقوس داخل المبنى. لكن مهما كان نوع

---

[38] سمبسون 1964

[39] باتيس ودونهام 1927، ص27

[40] لم تتوفر أية دراسة حول حجم الصخور الرملية المستخدمة في بناء الأهرام في النطاق الإقليمي، على عكس المقابر الملكية حيث يوجد تجانس بين المعالم الأثرية بنوري وجبل البركل ومروي الجنوبية، على عكس مروي الشمالية. هنالك دراسة حول الصخور المباني الملكية ذات الزوايا، (حكيم 1989).

الصخور، في السياق غير الملكي، فإن البناء الجنائزي الهرمي ذو القاعدة من الحجر الرملي أو من الشست على قاعدة معينة، عادةً ما ينتهي بكمية كبيرة من الطوب المحروق[41].

الشكل (8)

الطوب المحروق والمجفف عن طريق حرارة الشمس، في الحقيقة، هو العنصر الرئيسي في بناء الأهرام الكوشية الخاصة. بمقياس رئيسي حوالي 33 × 17 × 10 سم، من المهم ملاحظة أن النموذج المروي اتبع وبصورة قريبة جداً الحجم المطلق للطوب المحروق في العهد المصري 8,125 x 16,25 x 32,5 سم[42] على الرغم من الاختلاف البسيط في أحجام الطوب. كميات كبيرة بالقرب من المقابر بفضل الأراضي الموحلة من الرمل الغريني أو الأراضي الغنية بالحديد (تعطي اللون الوردي للطوب والجص)، يمكن تخصيبها بالمواد النباتية أو المخلفات الحيوانية التي تلعب دوراً مهماً في إزالة الشحوم.

لضمان عملية ربط متكاملة بين الوحدات المستخدمة عند بناء حائط، يتم استخدام خليط الرمل المخصب مع مسحوق الطين. في بعض المقابر كمقبرة صاي وصادنقا، فإن المحاجر التي يستخرج منها الحجر المستخدم في بناء المباني الجنائزية كانت مضمنة داخل القبور. الحفر التي يتم فيها صناعة الطوب والأسمنت وطبقات الطلاء الخارجية عادةً ما تكون قريبة من مكان البناء.

استخدم الطوب أيضاً، طيلة العصر المروي، في عمارة القصور والمعابد والمباني الإدارية وكذا في بعض المساكن[43]. مع ذلك، لم يتعلق اختيار المواد المستخدمة في بناء الأهرام بالموارد المتوفرة فقط حول بيئة المقبرة. في الحقيقة كان البناء بالحجر بمثابة حق محفوظ لبعض الشخصيات الهامة في السودان الأوسط والنوبة. كان هذا الأمر أكثر انتشاراً في القطاع الخاص في النوبة السفلى، حيث أن الحكومة المركزية في هذه المنطقة قد قدمت امتيازات خاصة للنخب المحلية.

4.2.2 المعمار

تشترك جميع المعالم الهرمية الخاصة في العهد المروي في أن لديها جداراً إلى الداخل يبدأ مع بنية الهرم التحتية. تتمثل تقنية بناء الهرم في تكوين صف من الطوب أو الصخور على الأرض بمثابة المستوى الأول، ثم البدء في ملء المساحات الداخلية للواجهة وكذا محاذاتها بخليط غير متجانس من الركام والرمل. أما المستوى الثاني فهو حائد قليلاً، لا يشرف على الفراغ إطلاقاً.

---

[41] وولي وروندول ماكلفير 1910، ص1. 112.
[42] رويك 2000
[43] إدوارد 1999 ب

الشكل (9)

الأهرام الممتلئة بكتل غير متجانسة وغير مستقرة وبكثافات مختلفة تكون مع مرور الزمن مهددةً بالتكدّس فوق بعضها البعض وخلق مساحات فارغة ومن ثم السقوط. حاولنا التغلب على هذا الضعف بإضافة دعامات داخلية تقسم البناء إلى تجاويف منفصلة عن بعضها البعض. هذه الجدران الفاصلة، والتي صممت هي الأخرى من الطوب المحروق، تخص الأهرام الكبيرة وتكوّن منظومات مختلفة بداخلها، كما لا تتوفر أية معلومات فيما يخص الحدود الزمنية. نلاحظ أيضاً وجود جدران على هيئة الصليب تربط الزوايا أو أوجه الهرم الأربعة مع بعضها البعض، وجدران على الشكل الشطرنج تقسم المساحة الداخلية إلى ستة أو ثمانية مربعات داخلية، واستثنائياً، جدران على الشكل دائرة داخل الهرم (الشكل - 9) تذكّر بالشكل القبر[44].

لم يكن هنالك، حتى وقت قريب، حلاً معمارياً متوقعاً لشرح وجود الأهرام الكبيرة التي لم تُظهر تلالاً أو مرتفعات ضمن مكوناتها الأساسية. مساراً جديداً يمكن من الآن البحث عنه بفضل حفريات صادنقا، والتي يوجد بها بناءً أثرياً مكوناً من سبعة مستويات ما زال محافظاً على الشكله لأنه حظي بنظام الدعامات الداخلية والذي لم يُنشر عنه حتى هذا التاريخ[45].

بفتح البناءات الأثرية ـ لأغراض البحث في طريقة البناء والمعمار وكذا لاحتمال وجود ودائع[46] ـ وجدنا أن طبقة سميكة من الأسمنت لا تقل عن خمسة سنتمترات توجد على طول الواجهة الداخلية للهرم في المستوى الخامس (الشكل - 10). يشير القفل المحكم للمدخل الموجود في الأسفل إلى أن هنالك تقسيمات داخلية مملوءة على الشكل طبقات أفقية. إضافة إلى تعزيز البناء، فإن هذه التقنية والتي تكرر على فترات منتظمة لتساعد في تأسيس أرضية عمل ثابتة للعمال القائمين على عملية البناء في مختلف مراحله تسهل عملية تركيب الجدران الخارجية.

الشكل (10)

استناداً إلى البناءات الأكثر حفاظاً على هياكلها، يبدو أن استخدام الطوب اللبن كمادة أساسية في البناء لم يمنع المرويين من إنشاء أهراماً خاصة بنسب مشابهة لأهرام القبور الملكية، بما في ذلك شدة مستوى الميلان على الجوانب الخارجية ولكن بأحجام أقل.

---

[44] ريلي وفرانسيني 2012

[45] نفس المصدر 2011

[46] رأس الطائر با ذو الجسد الإنساني تآكل بالشكل كبير وبالتالي فهو قديم جداً، تم إكتشافه في مركز البناء الأثري على مستوى راسخ تماماً ودون أية عوائق.

يختلف طول قاعدة الهرم على الأرض من متر واحد[47] إلى أكثر من عشرة أمتار على الجوانب[48]، على حسب أهمية المقابر والأشخاص الذين يشغلونها، أيضاً على حسب الفترة الزمنية التي بني فيها (قديمة أم حديثة). تميل الأهرام التي بنيت مؤخراً في العهد المروي الحديث إلى إظهار أبعاد ومجهودات أقل. نلاحظ أيضاً أن البناءات الأثرية الأصغر حجماً كثيراً ما ترتبط بعمليات دفن غير مكتملة[49].

إذا كان ارتفاع الأهرام الخاصة نادراً ما يتجاوز العشرة أمتار، فإن الهندسة المعمارية الأساسية واستخدام الطوب الخام يقللان من مجهود عمال البناء. كما أنه من المرجح أن عملية البناء كانت تستغرق بضعة أيام فقط.

لم تكن هوية المؤسسين معروفة بالنسبة لنا، كما أنه ليس هنالك اكتشاف لأيّة إشارة أو تسجيلات تتعلق بهم، سواء أكان داخل النصب الجنائزية الخاصة أو الملكية[50]. كان من الصعب الحصول على أدلّة على عمليات الإزالة أو إعادة البناء فيما يخص المباني الأثرية الخاصة، أما بالنسبة للآثار الملكية فإن هناك أدلة متوفرة (مثلاً بالنسبة ل بج رقم 53)[51].

5.2.2 معالجة الواجهة

علامة واجهة القبر، عبارة عن مبنى مقدس يعكس الشكلا من أشكال التراتب الاجتماعي، وكان الهدف من بناء الهرم أيضا حماية الشقق الجنائزية وكذا الموتى. أياً كانت مكونات البناء الأساسية فإنها تحتاج لحماية من الرياح القوية الغنية بالرمل وأحجار الكوارتز الحادة جداً والتي كانت تسود في تلك المنطقة من النوبة.

الشكل (11)

لهذا السبب، اعتدنا على طلاء النصب التذكارية بمادة مكونة من التراب أو الحجر الجيري بالنسبة للأهرام الملكية أو الأميرية[52] (الشكل– 11). هذا العرف كان سائداً بصورة واسعة في معظم البناءات المروية الرسمية سواء أكانت من الطوب المحروق أم الطين أو من الصخور الحجرية[53]. في حالة هذه

---

[47] ريلي وفرانسيني 2011

[48] فرانسيني 2012 ب

[49] غريفيث 1924، الصفحات 39/3

[50] كنا نعتقد ولوقت طويل أن وجود الكتابات تشير إلى تاريخ تأسيس أو تجديد الأهرام الملكية (غريفيث 1912، ص 1-6). تمت مراجعتها وتطويرها بواسطة زيلارز، هينتز وهوفمان، هذه الفرضية قام بإلغائها كلود ريلي (2007، ص 208 - 213)، حيث أثبت أن هذه الكتابات في الواقع عبارة عن نصوص للإخلاص.

[51] هينتز 1973، ص 42

[52] هنكل 1989، ص 827

[53] في جبل عدّا، تم العثور على بقايا طلاء بيضاء في قاعدة بعض الأهرامات ذات الأساس الحجري (ميليه 1963، ص 161)

الأخيرة، فإما أن تكون أسطح الصخور خشنة السطح أو مبنية على الشكل أعمدة بغرض تسهيل التصاقها وتماسكها. الطلاء المستخدم، خليط من الحجر الجيري، يمكن استخدامه في واحدة أو عدد من الطبقات مع تغيير التركيبة بالنسبة للطبقة الخارجية الناعمة. هذه الطريقة تمكننا من التمييز بين الطبقة السميكة المكونة من خليط الرمل والطبقة الرفيعة التي توجد على الأسطح، وكذا تسمح بعمليات النقوش الجدارية التي تتخللها الألوان إلى العمق.

الشكل (12)

يبدو أن اللون الأحمر[54] كان ذو خصوصية بالنسبة للأهرام الخاصة[55] والمعابد التابعة لها في الوقت نفسه (ميليه 1964، 8)، إذ أنه الشيء الوحيد الذي لاحظه باحثو الآثار[56]، كما أنه معروف باستخدامه في السياق الملكي في النصب التذكارية الخارجية خلال القرن الثاني الميلادي. لكن الطلاء الأحمر لا يغطي بالضرورة كامل البناء الهرمي الخاص على حسب دراسات قريبة تؤكد وجود طلاء باللون الأحمر (الشكل 12) على مبنى أثري ظلت طبقاته الأولية من الطوب المحروق محافظةً على طبيعتها دون أية معالجات (فرانسيني 2009 أ). باعتبار هذا المفهوم وتعميمه على الأهرام التي ما زالت في أماكنها، نستنتج أن هذه الممارسة الشائعة تتمثل في طلاء الجزء العلوي فقط من البناءات إذ أنه الجزء الذي يمكن رؤيته عن بعد.

3.2 قطع الآثار المعمارية المدروسة

كما هو شائع في كلا النوعين من البناءات الجنائزية الملكية والخاصة، فإن بعض القطع الهندسية من الصخور يمكن إضافتها للبناء متضمنةً أيضاً أشكال من الطوب المحروق إما بغرض محاذاة الهرم أو للسماح بوضع الأغراض النذرية.

1.3.2. المحراب

المحراب، يوجد في الربع العلوي الأخير للبناء الأثري[57]، إما أن يكون كتلة أحادية من الحجر مصقول على الجانب الشرقي للأهرام الخاصة (الشكل 13)، أو كتلة ملتصقة بوحدة البناء في حالة البناءات

---

[54] المغرة الحمراء هي اللون المستخدم أيضاً لرسم أوجه وأجسام المروبين. كلود ريلي يرى وجود صلة محتملة مع الصبغة الحمراء التي تملأ العلامات المقطعة على النقوش الجنائزية (حسب الحديث إليه بصورة شخصية). الـاثير المصري، حيث الكتابة أحياناً باللون الأحمر، ليست مستبعدة، بالرغم من أن السبب الرئيسي لتوظيفها يعود إلى وفرة المغرة الحمراء في النوبة.

[55] شيف جيورجيني، 1965، ص 116.

[56] علماً بأن تصلب الطلاء على المباني الأثرية الخاصة، والذي يحتاج إلى عمل طويل من التكسير للوصول إلى الرسم، عادة ما يخفي جزء من قبور الأطفال التي رتبت على جوانب الأهرامات.

[57] نجدها أحياناً ملطخةً بفضلات الطيور، مما يؤكد على أن موقعها في قمة مرتفعة.

الملكية (الشكل 14)[58]. ففي حالة الأحادي تكون القطعة مصممة في قالب واحد من الحجر الرملي. للأسف ليس لدينا أي براهين لبيان المحتويات، على الرغم من وجود قطع مشابهة إلى جانب المنافذ الجنائزية الحديثة في مصر الرومانية تبين أن تماثيل صغيرة يرجح أنها تجسد الميت أو آلهة الحماية.

الشكل (13)

يحتوي النموذج الأكثر شيوعاً على قوائم مستقيمة يعلوها قولب طوقي أفقي، تليه إلى الأعلى حلقية يعلوها قولب آخر. ينحدر من نموذج هندسي فرعوني، وبالمثل مبني من الصخور التي عاشت حتى العهد الروماني[59].

الشكل (14)

يبدو أن أشكالاً متنوعة تم اكتشافها، إذ أن في القطاع رقم 1 لمقبرة صادنقا والتي تحتوي على مزيج من الآثار الهرمية النبتية والمروية، نجد أنه من بين عدد من العناصر الهندسية الأخرى من الرمل الحجري منفذاً آحادي الصخور مقوس، إطاره الداخلي المحفور لديه نفس الشكل أبواب الأضرحة المروية، كما أن قوائمه تميل إلى الداخل (الشكل 15).

الشكل (15)

مجزأةً في كثير من الأحيان، لا يتم نشر هذه البقايا عندما لا يتم خلطها مع قطع من عتبات الأبواب أو المعابد الجنائزية. نموذج المقابر رقم 3 بجبل عدّا[60] يبين أنه واستناداً إلى الشظايا المتناثرة من حطام الأهرام، والتي تمكّنا من الحصول على خمسة محارب منها، تشير إلى أن معظم البناءات الأثرية ذات الأساس الصخري التي ما زالت موجودة على الموقع، لدى كل منها واحدة.

لا يوجد نموذج مزخرف أو مسجل، ولكن هنالك كتلة موجودة بالقرب من أبو سمبل يمكن اعتبارها استثناءً[61]. يوجد عمود من الحجر الرملي نصب عليه مجسم لأنوبيس والتي قد تنتمي إلى الجزء الأيسر من متراصة محراب آحادي الصخر.

2.3.2. القمة الهرمية

[58] موقعها بالتحديد تم معرفته بواسطة رحالة القرن التاسع عشر، كما ظلت في موقعها على الهرم بج رقم 19 عندما شرع هنكل في ترميمها.
[59] أدرياني 1963، ص 99، الشكل 336
[60] ميليه 1963، ص 161
[61] سميث 1962، الصفحات 3، 6

يعتبر الهرم الكوشي مصري الأصل. فهو نقطة التقاء بين صرح بناه الرجال على سطح الأرض وبين السماء، مجالاً مقدساً لإله الشمس. مغطاة بالشكل محدب، فإن الأهرام والمسلات (الأهرام الطويلة) المصرية[62]، مع ذلك، لم يتم بهذه الأشكال من قِبَل الكوشيين.

الشكل (16)

في السياق الملكي، فإن القمة الهرمية لديها الشكل هرم مبتور يوجد بمركزه قرص قصير مالشكل بالإسقاط يستقبل عنصراً ذو صلة (قرص شمسي أو تمثال معدني؟) كما تشير إلى ذلك الثقوب المحفورة لهذا الغرض[63]. كنا نعتقد ولوقت طويل أن هذه الخاصية كانت تقتصر على البناء الملكي[64] فقط، ولكن اكتشاف نموذج مشابه من العهد النبتي بمنطقة الشلال الرابع دحض هذه العلاقة[65]. هذا النموذج والذي لا يتعلق فيما يبدو إلا بالأهرام الحجرية، تم بناؤه في الأصل للنصب الجنائزية التي تخص شخصيات مهمة من العصر الأرُستقراطي الكوشي القديم، قبل أن يتم اعتمادها لدى الملوك المرويين.

تختلف القمة الهرمية المروية التي تحد القبور الخاصة في هيئتها عن تلك التي تزين البناءات الملكية. لذا كانت مجهولة لفترة طويلة من قبل مشرفي الحفريات، وكانت توصف على أنها نصباً تذكارياً أو شاهداً قبرياً أو عنصراً هندسياً لتحديد زوايا المصطبة.

الشكل (17)

تتكون القمة الهرمية من الحجر الرملي، ومبنية على مرتفع من الطوب المحروق، لم تُعرف خواصها التشكيلية من قبل في منطقة وادي النيل. ذات لسان طويل ذو أربعة أوجه مستقيمة أو مائلة قليلاً، ينتهي عند القمة ببروز شبه كروي يعلوه الشكل من أشكال الزينة. علينا أن نعترف إذن أن هنالك تشابه مع برعم من زهرة اللوتس على وشك أن تتفتح (الشكل 17). اعتماداً على درجة تنفيذ القطعة والتفاصيل التي يقدمها النحات، فمن الممكن التمييز بين بتلات الزهرة، كما أن هناك رابطاً يسمح بتماسكها معاً (الشكل 18).

---

[62] مالك 1990
[63] هنكل 1982أ، 2أ
[64] نفس المصدر 1982 ب
[65] ولسبي 2003 ب، 30، 9

الشكل (18)

غالباً ما يوضح اللسان حيطاناً مائلة تصغر شيئاً فشيئاً من القاعدة في اتجاه القمة، هذا الشكل يجعل القمة الهرمية ثابتة على البناء بالشكل يمكنها من مقاومة الرياح التي غالباً ما تكون عنيفة على طول وادي النوبة. عندما تكون الجدران مستقيمة، فإن القمة الهرمية يمكن أن تستقر في إطار متوسط من الحجارة الموضوعة على قمة الهرم[66]، وذلك تفادياً للتآكل التدريجي للحجر على الطوب. بصورة عامة، يكون الجزء الأسفل من اللسان بالكاد مربعاً، إذ أنه من المقدر أن يختفي داخل المبنى.

باستثناء تلك التي تمثل زهرة اللوتس، فإن ديكور القمم الهرمية ينتهي في أغلب الأحيان ببعض الخطوط المنقوشة. ولكن نلاحظ، استثنائياً، نموذجين منقوشين. نتج الأول عن حفريات غارستانغ بمروي[67] ويمثل شخصية واقفة[68]. بينما يمثل الآخر، وهو الأقدم، مرحلة وسيطة بين النموذج المصري والاقتباس الكوشي. تم العثور عليه في كرمة[69] على أرض طينية محروقة خلال التنقيب عن المساكن النبتية عليها كتابات نقشية يصعب قراءتها، كما يظهر عرضاً خارجياً طويلاً يبدو أن واجهته قد بدأت في التآكل.

بمجرد تحديدها، بما في ذلك المواقع التي تم التنقيب عنها في السابق، فإن القمة الهرمية للمقابر الخاصة، وحتى تلك التي تكون مجزأة، تصبح عنصراً أساسياً لإثبات وجود البناءات الهرمية المختفية. فهي أيضاً تمثل دليلاً قاطعاً ضد أسطورة المصطبة.

نلاحظ أنه في العصور اللاحقة، غالباً ما نجده كوديعة جنائزية تقع إلى جانب جثث الموتى[70]. عليه يجب اعتبارها قطعة نذرية حافظت على بعد ديني مهم، مرتبط مع معتقد النظام الشمسي.

3. المصلى الجنائزي

ننسب إلى قبر تهارقا بمقابر نوري الملكية أول مصلى جنائزي مجاور للجهة الشرقية لمبنى هرمي كوشي[71]. وهذه ليست بدعة، إذ أن هذا النوع من الإضافة تم إثباته مسبقاً أمام مقابر الكرّو[72]، وقبل ذلك أيضاً أمام بعض مقابر المملكة المصرية الحديثة المقامة في مصر والنوبة[73]. يمكننا أيضاً الرجوع حتى

---

[66] بيرجيه النجّار 1994، ص137، الشكل7
[67] تم العثور عليها بالمقبرة الكبيرة الخاصة (المقبرة 200) المجاورة للمدينة
[68] علي حكيم 1988، ص 278
[69] بونيه وفالبيل 1987
[70] جوس 2002، ص 132، ص 14 أ
[71] هنكل 2000، ص 12
[72] ويلسبي 1996، ص 101 والشكل35
[73] على سبيل المثال بالسرَّة شرقاً (هيوغ 1965، ص 26 أ).

التقاليد الأكثر قدماً والتي تمت دراستها على قبور المجموعة ج بالنوبة السفلى حيث المصليات التي ترافق الأجزاء الفوقية للعديد من الأضرحة الجنائزية.

الشكل (19)

ظهرت في القطاع الخاص في العهد المروي المصليات الجنائزية منذ الاكتشافات الأولى استجابةً لرغبة إنشاء مكان مقدس لتأبين المتوفى تيمناً بالنماذج الملكية. في معظم الأحيان تمثل أبعادها تحضيراً معمارياً بسيطاً لبناء حقيقي، والذي سماه جان لوكلانت[74] "المصليات الزائفة" (الشكل 19). مهما كان حجمها، تشير المصليات بالشكل ملموس إلى آمال البقاء بالنسبة لأسرة من خلال مساحة مخصصة لتأبين الموتى. إلى جانب تيمنوس محتمل يحيط بالقبر أو يحد ببساطة الجهة الشرقية للهرم، يكون المصلى في قلب نظام يتضمن عناصر أخرى للعبادة مثل طاولة القرابين أو الحجر الجنائزي. أمام هذا المصلى أو بداخله؛ يتم وضع القرابين كما يتم إراقة الخمر في نفس المكان إكراماً للآلهة. يعتبر أيضاً مسرحاً للتضرع للمتوفى من خلال كلمات سحرية وتلاوة تمكّن القارئ من الإنضمام إليه والحفاظ عليه من النسيان.

لا يمكننا أن نتخيل العلاقة بين الأحياء وعالم الموتى، من خلال المصلى الجنائزي، كإحياء ذكرى بمعناها البسيط أو إزعان إلى التقاليد. تعتبر عبادة الموتى الصراط الذي يؤدي إلى الآخرة، كما أن عالم الموتى كان يلعب دوراً نشطاً في المجتمع الريفي المروي كمساراً تم اتخاذه في العديد من المجتمعات منذ العصر الحجري وإلى يومنا هذا. المتوفى وسيط مباشر مع العالم المقدس، فهو أقرب وأكثر ثقة من كهنة المعابد التي غالباً ما يكون الدخول إليها مقصوراً على نخبة معينة أو مرتبط بأعياد محددة يسمح فيها بدخول الجميع. تسمح عبادة المتوفى إذن بالتضرع للآلهة بانتظام عن طريق الأسلاف الذين تم دفنهم بمقابر قريبة.

بفضل المعبد، يكون القبر في مركز يحافظ على العلاقة الخاصة بين مجتمع الأحياء والعالم الخفي الذي يفترض أن المتوفى قد انضم إليه. يضم القبر أواني نظيفة تم توفيرها لخدمة الجنازة (كما تم العثور على مزهريات في الموقع[75])، توفر أيضاً إطاراً لعبادة الموتى، وإن كان هذا الأخير، داخل مجتمع ما، يسقط في بعض الأحيان الطموحات الدنيوية المتعلقة بالطموحات الأسرية.

1.3 الهندسة المعمارية

[74] لوكلانت 1970 أ.
[75] ويليامس 1991، ص 6أ، ويلسبي 1996، ص 148.

في السياق الملكي، غالباً ما نقارب الشكل الذي يتخذه المصلى الجنائزي بالمعابد المروية المكرسة للآلهة المحلية، كما في النقعة والمصورات الصّفرة[76]. في الواقع تتكون هندسته المعمارية، بالرغم من أن النسب أصغر، من بوابة ضخمة للدخول يوجد بمركزها باب يؤدي إلى دخول الغرفة الوحيدة بالمبني والتي تتسم بزخرفة جدارية كثيفة. بما أن النموذج موجود مسبقاً في العصر النبتي بمقابر نوري، تظل محاولة إرجاع المسألة ومن ثم البحث فيها عن التأثير المعماري الجنائزي لإنشاء هذه المعابد استثنائية. ولكن منذ العام 2008، فضلاً عن حفريات كندال، ونحن نعلم أن هذا المعمار الفريد الذي يتوافق والمعابد المصرية في الأمبراطورية الحديثة، كان حاضراً بقوة في البادية النوبية. يشير اكتشاف عدد من المباني في فترة حكم أمنحوتيب الثالث[77]، والتي أقيمت على سفح جبل البركل، إلى أن المعبد النوبي ذو الغرفة الواحدة مصري الأصل. في مصر، كان وجود مساحة للعبادة مستوحاة من المعابد شائعاً في هذه الحقبة أمام الأضرحة الخاصة لكبار الشخصيات بمنطقة طيبة بمصر. من جهة أخرى، ففي النوبة تؤكد العديد من عمليات التجديد التي أجريت على المعابد في العهد الكوشي على استدامة هذا النموذج ذو الغرفة الواحدة. حالة واحدة فقط لبناء جنائزي (بج 16) يبدو مختلفاً عن هذا التصميم، إذ لديه بنية فوقية تجمع في الوقت نفسه بين الشكل الهرمي والمعبد الداخلي (الشكل 20)[78].

الشكل (20)

المعابد الملكية القديمة المصممة من الحجر الرملي ومنذ القرن الثاني الميلادي (بج 32) تم استبدالها بالطوب المحروق (كما هو الحال بالنسبة للهرم). بالرغم من وجود بطانة داخلية من الحجر لأغراض الزينة، فإن هنالك أيضاً بعض القطع المعمارية محفوظة داخل هذه المواد (إفريز، أعتاب، ...الخ).

في الواقع أن نموذج الأضرحة الخاصة، إذا كان منتقى من المعابد الملكية، فإنه من الصعب تمييزه بسبب حجم البناء الصغير للغاية وعوامل عامة أخرى أقل بكثير. أمام هذه البقايا الأثرية المثيرة للاهتمام، اختار المكتشفون على الأجدر استخدام مصطلح "مقاربة" القبر بدلاً عن ذكر مكان للعبادة[79]، بلا شك، بالرجوع إلى مقاربة البناءات الحجرية المنشأة أمام بعض الأضرحة البطليموسية في مصر[80].

---

[76] توجد مزارات مكرّسة للإله أبيدماك

[77] كندال 2009

[78] تم بناؤه لامانيتاراكيد وفقاً لهينتز، وهوفمان وتوروك، وعلى عكس ما كان يعتقده دونهام، حيث كان يفترض أن يرى فيه قبر أريسبوخ، الأسمان وردا على طاولة القرابين التي تم اكتشافها داخل الغرفة الجنائزية. أصالة البناء ربما تنتج عن تحطيم المعبد الأصلي، وإعادة بناء "مصلى الهرم" بواسطة ملك في عهد لاحق كان يحتاج إلى مساحة لبناء نصب تذكاري له.

[79] وولي وراندال ماكلفر1910، ص 9

[80] بويريفنت و **ال**، 1998، ص 18 أ

يمكن القول أن المعبد الخاص يبنى، بصفة عامة، من الطوب المحروق حتى وإن كانت قاعدة الهرم مبنية من الصخور[81]. يتفاوت سمك هذه الجدران من نصف طوبة إلى طوبة ونصف، كما أن المسافة الداخلية بين الجدران الصغيرة دائماً ما تكون ضيقة جداً. يلتصق المعبد بالبناء مرتفعاً قليلاً عن قاعدة الهرم إذ ليس بالضرورة أن يكون لهما نفس مستوى القاعدة. المسافة بين جدار واجهة المعبد (والتي تطابق جدار الهرم) والجدران الصغيرة الجنوبية والشمالية يتم ملؤها عادةً ببناء موجز. أحياناً، يتم وضع جدار رأسي مقابل لواجهة الهرم لمنع ظهور أي تناقص على مستوى السمك الجداري في واجهة المعبد.

أجاب هذا الاكتشاف عن مختلف الحلول الهندسية من حيث الحجم: طوب خام موضوع على الشكل مسطح أو مائل، منحنى نوبي (آرش) أو غطاء على عارضة خشبية. في معظم الحالات فإن الطوب الخام يغطي كل الأجزاء الهندسية للمعبد، عدد من الخصائص توحي بأنه من الممكن إجراء عملية الطلاء.

ربما وجد الغياب الواضح للمعبد على رأس بعض المعالم الأثرية ذات الأحجام الضخمة حلاً بالاكتشاف الذي تم في عام 2011 بجزيرة صاي. تنتصب بعص الأهرامات الخاصة على موقع دفن خاص بنخبة إقليمية صغيرة[82] ولكنه غني، والتي يغطي الواحد منها مساحة مهمة على سطح الأرض تقدر بحوالي مائة متر مربع. هذا الأخير، الذي يتوسط المقبرة بالشكل مثالي، لم يتلقى أي عنصر من الطوب أو الحجارة يشير إلى وجود معبد، وإنما سلسلة من الثقوب الأرضية التي تظهر الشكل العام للبناء. ستة أوتاد خشبية تم إدراجها على حافتي المنحدر (ثلاثة على كل جانب)، بينما تم زرع أوتاد أخرى إلى الأمام لإعطاء الشكل البوابة الهرمية. كما أن الغطاء يجب تأمينه بقطعة من القماش مثبتة على قمم السواري العليا أو تعريشة من النخيل.

الشكل (21)

يفيد الاكتشاف الاستثنائي لسلسلة الكتابات المحفورة على الجرار والتي عثر عليها أثناء حفريات تمت على مقبرة مروية بكرمة (الشكل 21) في مسألة مخطط القبر وخيارات المصلى. هنالك دلالة على اتساع القاعدة التحتية (المنحدر والتجويف العميق كما يتبين ذلك من خلال خطوط مشعة) ومختلف العناصر الأخرى على السطح (الهرم والفناء ومائدة القرابين). في حالة عدم وجود المعبد فإن حلاً وسطياً يتكون من فناء تبدأ جدرانه مباشرةً من واجهة الهرم، ومن ثم إجراء عودة بزاوية قائمة إلى

[81] سمبسون 1964، ص 18 أ
[82] فرانسيني 2012 أ

الداخل مع ترك ممراً محدداً للدخول إلى الفضاء المقدس[83]. وبالغوص في الهندسة المعمارية الملكية فإن تيمينوس نادراً ما يوجد في المقابر النبتية الخاصة، بل شبه معدوم خلال العهد المروي.

عندما يصل المعبد الجنائزي إلى حجم معين فإنه يتم تعزيزه بعناصر معمارية صخرية تزيّن عادةً بالنحت ومن ثم الرسم عليها. هذه الأجزاء غير المتحركة يمكن حصرها في ثلاثة: العتبة وقوائم الباب والأسكفية.

1.1.3. العتبة وقوائم الباب

مكونةً من كتلة من الحجر الرملي نصفها مدفون في الأرض، فإن عتبة المعابد الخاصة لم تنل سوى بعض النسب التي تسمح بالمرور. في مقبرة جبل عدّا، لوحظت آثار الأبواب على بعض العتبات الحجرية[84]. ففي حالة الهرم رقم 1 المقبرة رقم 3، تشير هذه الآثار إلى وجود باب ذو جرسين. هذه العناصر تُظهر أيضاً أن المعبد كان يتم إغلاقه باستثناء الأوقات المخصصة لتلاوة طقوس الموتى. غالباً ما يبرهن وجود الأبواب بإسقاط عمودي إلى الجزء الخلفي من القوائم الحجرية، ما يشير إلى أن الأبواب كانت تفتح إلى الداخل.

الشكل (22)

أحياناً تحتمل العتبة رباعية الشكل على نهايتها مغارس شوكية مدببة تسمح بربطها مع الأعمدة. حتى وقتنا هذا، فإن موقع صادنقا هو الوحيد الذي سجل عتبةً حسب المعايير المروية في ما يخص الجنائزيات (الشكل 22).

الشكل (23)

غالبا ما تجسد القوائم المصنوعة من الحجر الرملي زوجاً يعبر عن الخلود في وضع متقابل على جانبي الباب دون تحديد مسبق. ظهرت هذه النقوش على الأعمدة فقط منذ القرن الثاني الميلادي مع بطلين أساسيين هما أنوبيس ونفتيس أو آيسيس هاثور[85]. نجد في معظم الأحيان أن آلهة الخمر تصور في وضعية إراقة الخمر وهي وضعية مميزة جداً من الفن المروي حيث أن الجسم يميل قليلاً إلى الأمام (الشكل 23). هذا المشهد أشبه ما يكون بطاولة القرابين التي ظهرت قبل عدة قرون من هذا التاريخ. يرتدي أنوبيس جلباباً طويلاً منتهياً عند مؤخرته بذيل بقر، ساكباً الخمر مباشرة من الإناء المحمول من

---

[83] وفقاً للوحات التي نشرها كايود (1826، ص56)، هذا الحل المعماري سيتم اعتماده في المقبرة المجاورة لجبل البركل، بالرغم من أن خطة ريزنر لم يتم اعتمادها (دونهام 1957، خطة 1).

[84] ميليه 1963، ص 163

[85] سيمبسون 1964، الصفحات 11/6

مقبضه على الأرض. أقل حدوثاً، فإننا نجد صورته رافعاً ذراعيه وكفيه متوجهين نحو الشمس إشارةً إلى التضرّع (الشكل 24). نجد هذا الوضع بصورة عامة في فن النقش المروي معبراً عن بابون الإله تهوت[86].

الشكل (24)

تظل القوائم والعتبات من الحجر الرملي من العناصر النادرة للغاية وحكراً على الأسر القوية. على سبيل المثال لا الحصر، ففي موقع كرنوق، ثلاثة قوائم من الحجر الرملي من أصل أربعة تم اكتشافها في موقع المقبرة تنتمي إلى معابد بيستو.

2.1.3. أسكفية الباب (العتب)

على الرغم من وجود تباينات بين النماذج التي تم اكتشافها إلا أن نموذجاً قياسياً يمكن أن يكون متطوراً على هيئة كتلة مستطيلة من الحجر الرملي تحتوي على نقوش بارزة على أحد جوانبها الطولية. يحتوي هذا النقش بصورة عامة على ستار أفقي يعلوه حلق، يحتوي هو الآخر على قرص شمسي ذو أجنحة، محاطاً بالصل المقدس. ينتهي النقش بنتؤ بزاوية قائمة. في معظم الأحيان، يحتوي العتب على كتابة منقوشة ولكن بعض الأمثلة تحتوي على نقش جنائزي بما في ذلك التي شهدها موقع صادنقا (الشكل 25).

الشكل (25)

القرص ذو الأجنحة والمنتشر بصورة واسعة على معالم العبادة الأثرية تم توظيفه في السياق الجنائزي في العهد النبتي على عتب معابد نوري[87]، بينما لوحظ استخدامه داخل القبر في مروي حيث يتم نحته أعلى الباب الفاصل بين الغرفة الخارجية وغرفة الدفن[88].

خلال العهد المروي المتأخر، تم تطوير الرمز القرصي المركزي ليصبح على هيئة وردة، كما أصبح النمط الشائع على كرتون المومياءات الرومانية المصرية. من بين مجموعات الديكور والتي نستطيع ملاحظتها على الأسكفيات، فإن تلك المرتبطة بالخمر[89] ونبات الكرمة تشير إلى درجة الغوص المتقدمة في العقائد الجنائزية المروية.

---

[86] لوكلانت 1967، ص 2.
[87] دونهام 1955، ص 65
[88] نفس المصدر 1957، ص 15 أ
[89] سيمبسون 1964، الصفحات 11/5

وبالمثل كما في ركائز الحجر الرملي للأبواب فإن عدد من بقايا النقوش متعددة الألوان كانت محفوظة بصورة عامة على واجهة الأسكفية، مشيرةً إلى استخدام الألوان الأحمر والأسود والأصفر والأخضر. هنالك اكتشافاً تم في كرنوق[90] يبين أن الشكل بأكمله من ركائز الباب والأسكفية يمكن أن يكون مستبدلاً بالألوان متضمنة الإلهيات، كما يمكن أن ترسم مباشرة على الطبقة التي تغطي طوب البناء.

الشكل (26)

الأسكفية أو العتب، عنصر أساسي مركزي يوجد اختيارياً أسفل السطح في المعابد الخاصة بغرض إضافات مستقبلية للبناء الأثري. لهذا السبب نلاحظ أن عليها نقش[91]، يبدو أن أحد هذه النقوش المخصصة يمثل صورة للكلب (الشكل 26). الأجدر أنه لا يشير إلى كلب حراسة أو أنه يقوم بعمل روتيني وإنما إشارة إلى أنوبيس، إله حماية القبر ومرشد المتوفى. في نفس الفترة، كان طبيعياً أن يرسم أنوبيس على هيئة كلب حراسة جالساً أو مستلقياً على أحد جوانب القبر المزينة من جهة طيبة[92]، أو تمثيل كلاب على شواهد قبور مصر الرومانية[93].

2.3 الأثاث الجواهري

إلى جانب المكونات الأساسية للمعبد يجب إضافة ثلاثة عناصر رئيسية للبناء الجنائزي المروي: التمثال وطاولة القرابين وشاهد القبر. عناصر يمكن تحويلها كما يمكن أن تشهد في الوقت نفسه على الحالة الدينية في ما يخص الجنائزيات وطبيعة الطقوس الجنائزية والعبادات التي تخص الموت.

1.2.3 التمثال- با

ظهر اسم هذا التمثال أثناء الحفريات المروية التي تمت بشبلول[94] حيث سمي به[95] التمثال الأصلي الذي يظهر نصف لرجل ونصف آخر لطائر مستحضراً للمكتشفين الأوائل علامة الروح للمصريين القدامى. مائة وعشرون نموذجاً أستخرجت مؤخراً بكرنوق، تم إرسال ثلاثين منها إلى متحف القاهرة حيث أعطى السيد ماسبيرو[96] التعليق التالي:

---

[90] وولي وراندال ماكلفير 1910،ص 111

[91] على طول المملكة، كان المرويون يستخدمون الكتابة على الجدران المقدسة بصورة كبيرة للغاية، يدل ذلك على المئات من النسخ التي تم اكتشافها في المصورات الصفرة. كان يوجد على الدوام شهور من الحجيج وعلامات وقائية ورموز نذرية أو أحجب.

[92] هوديل – هوينس 2000، ص 117

[93] مكليري 1987، ص 3، الشكل 6

[94] راندال ماكلفير و وولي 1909، ص 29.

[95] لم يتم إستخادم المصطلح لدى المرويين على الإطلاق

[96] ج. ماسبيرو، صحيفة الندوات (25 سبتمبر 1908)

"الشخصيات، سواء كانوا رجالاً أو نساء، مرتدين لملابسهم، مزيني الشعر، مشابهين للاثيوبيين، منحدرين من النقوش السفلى التي نراها على المعابد المروية، شخصياتهم غامضة، غزيري اللحم، مبتسمين، تعابيرهم هادئة ولكنها سخيفة، لم يثيروا على الإطلاق حفيظة الزوار إن لم يجروا وراءهم، يتدلى مع أكتافهم بالشكل قطري كما المعطف، ريش الصقور أو طائر الباشق (من الجوارح)، الظهر والأجنحة والذيل".

في وقتٍ بدأ فيه انتشار القيم في المجال الأكاديمي، كانت هذه المقولة شاهداً على الصعوبة التي وجدها علماء المصريات في إعتبار أن فن صنع التماثيل الجنائزية ليس مجرد صيغة مفقرة من الفن المصري. تشويش المنقبين وجد صداه لدى مدير متحف القاهرة:

> "هذا التحقيق فظ ولا يحتمل المقارنة مع أي من فنون التماثيل المصرية في أي من الفترات الجيدة، يبدو واضحاً أن النوبيين شاركوا في هذا الضعف في الفن التشكيلي لمعظم البربريين الأفارقة الذين كانت إنجازاتهم في فن النحت نادراً ما يتجاوز وصفها بالمتوسطة".
>
> (وولي ورانـدال ماكلفير 1910 ص 47).

لفهم المقاربة بين الفن المصري والفن الكوشي؛ يجب في البدء الرجوع إلى طبيعة ما تعبر عنه التماثيل الجنائزية المروية وأصل وجودها في النوبة. في مصر القديمة كانت هنالك طرق عديدة لتعريف القوى الداخلية التي تنعش كل فرد، با و كا. كا، تتمثل في قوة حيوية تسكن الجسد منذ ولادته وتظل داخله فيزيائياً حتى بعد الممات. لهذا السبب فإن صلوات وقرابين ما بعد الموت تخصص للمتوفى وغالباً ما توصف بأنها ساكنة داخل تمثاله. أما با فعلى عكس كا ينشط ويدخل الجسد لحظة الموت، وهو نوع من انبثاق روح الميت الذي لديه القدرة على مغادرة الجسد والتحول إلى هيئة طائر برأس إنسان[97]. منذ عصر الإمبراطورية الحديثة، فقد تم إنشاء نموذج موحد بالأضرحة والنقوش من كتاب الموتى الذي يدور حول ريش الطائر أو داخل القبر، أو أنه يستقبل الماء المسكوب. الصورة التي يعرضها التمثال الجنائزي من المحتمل أنها قد كشفت في العهد المروي عن هذين الوجهين (با في السماء و كا داخل التمثال). إن الميل إلى التوفيق بين المعتقدات الدينية خلال القرون الأولى من العصر الحديث تتوافق وإتحاد الرموز التي ربما لم يكن تعقيدها طبيعياً في نظر المرويين.

---

[97] بلا شك يجب التعرف على الصقر، على الرغم من أننا لا يمكن أن نستبعد طائر اللقلق جابيرو، فالهيروغليفية تستخدم لكتابة الاسم با (فينوس و يويوت 2005، ص 664).

النموذج المصري لبا كان موجود بالفعل لدى النوبيين في عهد الأسرة الخامسة والعشرين والعهد النبتي. كما نجد أيضاً على جداريات أضرحة الكرّو بعض المشاهد التي تجسد با للمتوفى[98]. هنالك أيضاً تمثيلات أخرى داخل مقابر نوري حيث يوجد با باسطاً جناحيه فوق المومياء[99]. من الصعب معرفة إلى أي مدى كان اقتباس الشكل من أشكال القداسة المصرية مثل "با " يمثل اعتقاداً بالمفاهيم الدينية التي ترافقه بالنسبة للمرويين. الإندماج على الشكل تمثال مركب من عناصر مختلفة يثبت على أي حال مفهوم الكائن الذي يجمع بين العناصر المرئية واللامرئية، والذي يبدو متسقاً مع تراث الديانة المصرية.

الشكل (27)

من الصعب إعطاء وصف دقيق لتمثال با إذ أنه ليس هنالك نموذج قياسي وإنما سلسلة بقايا تشير إلى تغيير بدرجة كبيرة في تشكيله. هذا التسلسل الزمني[100] الذي بدأ بتمثال على هيئة طائر- إنسان والذي ينتهي بنحت أقرب إلى أن يكون على هيئة إنسان بصورة كاملة (الشكل 27) لا يشير بالضرورة إلى تطوير المفهوم الديني، لكن يشير على الأجدر إلى توجه جديد إلى الدور الذي لعبته التماثيل في الهيكلة الجنائزية.

كان في البدء عبارة عن كتلة حجرية واحدة، هذه الكتلة تمثل الطائر،الصقر، كما يتضح من التفاصيل المميزة للريش من خلال التجويف في قاعدة الرأس[101]. نجد هذا في الشمال وفي البطانة[102]، على الرغم من أن عدداً قليلاً من المقابر المكتشفة جعلت التفكير في أن تمثال " با" ، أياً كان الشكله، كان سمةً خاصة بالنوبة السفلى. لا يوجد منه أي شيء، والبقايا المكتشفة في النقعة[103]، وكذا ثلاثة تماثيل بمروي الشمالية[104] وأربعةً في مروي غرباً تبرهن ذلك (W.33،W.11 ، W.225 ، W.384).

يتدرج تمثيل المتوفي بتغيير هيئته ببطء إلى الشكل الإنسان بمنح بعض العناصر الجسمية بدءاً بالوجه والقدمين[105]. ومن ثم يتم تغيير جسد الطائر بجسد المتوفى والاحتفاظ بالأجنحة كتذكار لأجنحة الطائر الأصلي[106]. بالوصول إلى هذه المرحلة، فإن التمثال المجسّم يمكنه أن يستقبل رأس يتم تجهيزه بصورة

---

[98] دونهام 1950، ص 18 ب.
[99] نفس المصدر، 1957، ص 106، الشكل 80.
[100] هوفمان 1991ب، فرانسيني 2007.
[101] مثال مفصل تماماً وواضحاً في إيميري وكيروان 1935، ص 71، الشكل 7/51.
[102] دونهام 1963، ص 111، الشكل 83 ب.
[103] كروبير، 1999، ص84.
[104] دونهام 1957، ص 38 د، هـ
[105] نفس المصدر 1963، ص 2/164.
[106] راندال ماكلفير و وولي 1909، ص 16، رقم 5001.

مستقلة، وذلك لتلبية الضروريات لمطابقة السمات الحقيقة للمتوفى. تؤكد الاكتشافات الأثرية هذا التسلسل الزمني كما في مقابر كوستول وبلانيا حيث في الأولى، والتي تعتبر الأقدم، تم العثور على تمثال الطائر الحجري فقط (بيردستون)، بينما في الثانية فقد وجد كلاهما[107].

توجد في مصر البطليموسية والرومانية أيضاً بعض التماثيل التي تمثل با[108] مصنوعة من الخشب المجصص والمرسوم، وقد وضعت فوق التوابيت أو الورق المقوى مرتديةً قرصاً شمسياً على شعر مستعار. كان توزيعها محدوداً، كما كان من الصعب وجود صلة بينها وبين النموذج الكوشي. أيضاً تم العثور على التمائم التي تمثل الطائر با داخل الأثاث الجنائزي لبعض القبور من العصر الروماني الإغريقي في مصر، ولكن لم يحدث ذلك في النوبة. هنالك نموذج زجاجي تم اكتشافه في أخميم[109] يعود تاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي، التمثال لديه جسم طائر ورأس إنسان، الشئ الذي يتطابق تماماً مع الخصائص المروية. السؤال يظل إذن قائماً.

الرأس الذي طالما لم يكن ملتصقاً برأس التمثال يجب أن يتم تحليله بصورة مستقلة. فهو يمثل أكثر من ربع الارتفاع الكامل للتمثال، ما يثير انتباه الناظر إليه بصورة كبيرة جداً. عندما تكون هنالك ضرورة لالصاق جسم آخر بالتمثال فهنالك لسان حجري أو قد يكون خشبياً أيضاً تم إيجاده لهذا الغرض أعلى قمة الجسم بين الكتفين (الشكل 28).

الشكل (28)

يوجد تفاوت كبير جداً من الناحية الجمالية ابتداءاً من الشق البسيط وحتى المخطوطة العمودية التي تعطي جمالية الفن التشكيلي للعمل. لا تزال العديد من الملامح المعبرة عن الأساليب ثابتة، فمثلاً النظرات المستقرة والتشابه الكبير الذي يظهر على كامل الوجه. التعابير المميزة جداً لبعض الوجوه (التكشير) تعرب عن التوتر الذي يحدث عقب الوفاة والتغيير المظهري[110] ما لم يسقط الجانب الساخر لشخصية ذات إيحاء ديونيسي (ديونيس: إله الخمر). على الرغم من هذه التباينات، فإن الطراز العام هو الطراز الكوشي الرمزي والذي يميزه بطبيعة الحال قصر الرأس الذي يظهر بصورة متكررة على الرؤوس المنحوتة أينما وجدت، سواء على جدران الأضرحة أم على القصور. مقارنة مصباح جداري من الصونيات[111] أو إناء للزهور من الكدادة[112] يكفي لوضع أرضية ثقافية مشتركة.

---

[107] ويليامس 1991، ص 96.
[108] فرانسيني 2010ج، ص 259.
[109] بينش 1994، ص 148.
[110] بوميرانتسيفا 2007، ص 219.
[111] زوراوسكي 2002، ص 55.

الشكل (29)

وكما تم إنجاز هذا العمل بالخزف المنقوش والذي عرفت به مؤخراً مدارس أو أيدي فنانين، فإنه من الممكن التعرف على عمل لنحّات من خلال أسلوبه الخاص الذي يظهر على منتوجاته. يوضحان نموذجان من صادنقا هذا النوع من التوقيع ، والتي يشير إليه هنا وجه ضيق ورقبة سميكة وتعبير وجهي مبتسم يعبر عن الصفاء (الشكل – 29).

الشكل (30)

توجد أيضاً داخل الأثاث الجنائزي الذي عثر عليه في المقابر المروية بعض النماذج لرؤوس منفصلة لا تتوافق مع بقية الجسد (الشكل30). على هيأة أكبر، فإن التمثال لديه ذيل طويل ذو نهاية رقيقة **جداً**. يمكن أن نخلص إلى أنها كانت مثبتة على طريقة الرأس الهرمي على الرغم من أن موقعها يظل لغزاً. الأسلوب مهذب جداً وأقرب إلى الثلاثي الأبعاد، كما أن غياب الزخارف لمجهولي الهوية تبين أنها ليست مرتبطة بالمتوفى على وجه الخصوص ويمكن أن تشير إلى عدد من الناس في الوقت نفسه. ففي بعض الأحيان توجد مدفونة على انفراد أو ملحقة بدفن آخر، بالتالي لا يمكن مقارنتها بالرؤوس التعويضية التي عثر عليها في مصر، كما أن هذه الممارسة مستبعدة في عهد الامبراطورية القديمة ومصر السفلى. نستطيع مقارنتها بتماثيل للوجه أحيانا يتم العثور عليها منحوتة على الحجارة داخل المقابر المروية[113].

الشكل (31)

يؤدي وضع مسألة تثبيت تمثال با في الاعتبار إلى إثارة مسألة أخرى أكثر تعقيداً، ألا وهي تحديد موقعه[114]. في الحقيقة وبعد قرن من الإكتشاف، لا يوجد أي تأكيد للحقائق فيما يخص هذا الموضوع، ما يعني عدم العثور على أي شيء في الموقع. هنالك تحليلاً متكاملاً للبقايا الأثرية يسمح بالتقدم في عملية تقصي البحث.

الآلية الأولى للوصول إلى بر الأمان والتي تعتبر متقدمة هي أن يوضع التمثال أعلى المعبد[115]، بالأخص إذا كان هذا الأخير يحتوي على زوائد من الطوب في الواجهة على طريقة الأبراج، الشيء

---

[112] لونوبل 1998، ص 133، الشكل 3.

[113] بيليسر كاتالان 1963، الشكل 4/21

[114] كنا منذ وقت طويل نفترض بصادنقا، أنه من الممكن إيجاد التمثال داخل الهرم (لوكلانت 1970 ب، 259)، لكن إعادة الاختبار للبناءات الأثرية ووضعها تحت البحث أكد عدم وجود العتبة المؤدية إلى حجرة داخلية، عليه، استحالة وجود سرداب.

[115] وولي وراندال ماكلفير 1910، ص 114.

الذي قد يؤدي إلى إفساد التمثال بصورة عامة. كما أنه من الممكن أيضاً إلصاقه بالبناء وذلك بإسناده على وتد خشبي بحسب وضع الثقب المركزي الموجود على بعض القواعد[116].

الشكل (32)

أما الآلية الثانية فتعتبر أمتداداً لسابقتها، وتتمثل في وضع التمثال على قاعدة مؤمنة (الشكل 31)، وهذا الأمر يتطلب إما عمل مصد أو أن يكون مفتوحاً من الجانبين[117]. وفي هذه المرة أيضاً، يتم تفسير المواد على أنها طاولات لسكب الخمر في معظم المنشورات القديمة.

النظام الثالث والمعتمد للتثبيت هو اللسان الصخري للتمثال (الشكل 33). من النادر جداً أن نجد كل هذا في قطعة واحدة، ففي الغالب لا يتبقى سوى اللسان الصخري مع مقدمة أرجل الطائر أو التمثال الخاص بقاعدته.

الشكل (33)

ومنذ ذلك الوقت ظل سؤال يطرح نفسه: لماذا لجأ المرويون إلى أنظمة تثبيت متضادة قطرياً في نفس الموقع؟ الفرضية الأكثر منطقية أنه يوجد اختلاف زمني بين الأنظمة مما يسمح بتقليص الفرضيات إلى اثنتين بدلا عن ثلاث؛ من ناحية، التماثيل ذات الألسن، ومن الناحية الأخرى التماثيل ذات القاعدة المستوية. بمجرد الوصول لهذة التفرقة، فإن عنصراً أولياً من الإجابة يستحضر: تحمل جميع التماثيل ذات الألسن صفات واضحة للطيور وقليل من العناصر تظهر خواص الإنسان. إذا اعتقدنا بالتسلسل التاريخي لتطور تمثال با بخطواته المذكورة آنفاً، فإن الشكل العصفوري أقدم من الشكل ذو الهيئة الإنسانية الموجودة على الأضرحة التي أنشئت في فترات لاحقة. عليه فإن النماذج التي تحتوي على لسان صخري تسبق ذات الأسطح المستوية.

كيف يتم تفسير وجود الألسن على هذه التماثيل؟ حتى الآن، لم يكن من الممكن على الإطلاق إلصاق هذا البروز الحجري الضخم بأي من آليات الإلصاق المدروسة على معبد جنائزي، وبالمثل فلا يوجد أي من الأوتاد على سطح الأضرحة يتطابق مع أبعاد اللسان. على العكس، فإن لسان التماثيل ذات الهيئة العصفورية يتطابق مع الأوتاد الموجودة على الرأس الهرمية. نخلص إذن إلى أن الأوتاد على السطح كانت لديها نفس المهمة، كما أنها وجدت في نفس الموقع، على قمة الهرم. كما هو الحال بالنسبة للقمة الهرمية، فإن طول اللسان يسمح بتثبيت راسخ يكفي لمقاومة الرياح القوية. قمة البناء الهرمي فقط هي التي تتسم بهذه الخصائص. وجود التماثيل ذات الهيئة العصفورية على قمم البناءات الجنائزية

---

[116] غارثيا غينيا وتيكسيدور 1965، ص 40 د.
[117] الماغرو 1965، ص 29.

يعكس اكتشافات بقايا الطيور الحجرية من بين الطبقات المهشمة لبعض البناءات الأثرية[118]. يتطابق غياب الكثير من التفاصيل النحتية لبعض الطيور الحجرية أيضاً مع هذا النوع من الإلصاق إلى الأعلى أو أن الشكل الخارجي يعطى أهمية أكثر من التفاصيل الدقيقة للجسم.

هذه الفرضية التي وضعت على أساسها التماثيل ذات الهيئة العصفورية على قمم الأهرام توجب إعادة الإعتبار للمكان حسب التسلسل الزمني للقمم الهرمية، كما نعرف ذلك في المقابر المروية الخاصة. هذا الأمر لم يظهر، بحسب دراستنا إلا عندما بدأ تمثال با في إضافة بعض السمات ذات الطابع الإنساني، لذا أصبح جسماً شعائرياً يتوجب رؤيته بالتفاصيل للحجاج وكذا الأشخاص الزائرين للأضرحة لممارسة بعض الشعائر. بصيغة أخرى، عند وضع التمثال با داخل أو على المعبد الجنائزي، هذه المرة بوجود قاعدة بسيطة مستوية (لا حاجة للإلصاق بصورة ثقيلة) فإن الهرم يمكن رؤيته إذن متوج بالرأس الهرمي وزهرة اللوتس.

مهما كان موضع تمثال **با** سواء على قمة المبنى الجنائزي أو المعبد، فليس هنالك أدنى شك في أن يكون إتجاهه ناحية الشرق لإصطحاب نور الشمس في رؤيته الصباحية عند الإستيقاظ بعد الموت.

الشكل (34)

نماذج التماثيل العصفورية ذات اللسان والتي بدأت بإظهار بعض الخصائص الإنسانية لديها أحياناً تجويف محفور تحت اللسان (الشكل 34) تشير إلى إمكانية الإلصاق المؤقت على قضيب أو رمح، وعرض التمثال لحظة المراسم الجنائزية قبل وضعه على البناء. هذه المرحلة من التحول تعلن عن الدور الذي سيلعبه التمثال **با** قريباً بين مجتمع الأحياء. بينما النخبة الذين تم دفنهم في القرون الأخيرة من العهد المروي محاطين بالكثير من الثراء والشرف، يحمل إضفاء السمات البشرية على تمثال **با** رسالة آيدولوجية تقرأ من خلال التفاصيل الظاهرة، الأبهة الكاملة وعلامات السلطة والقوة المنسوبة التي تظهر صورة المتوفى. فقد تحولت عبادة المتوفى شيئاً فشيئاً نحو عبادة الشخص، وبالتالي إلى العائلة والحاشية التي تظهر قوّتها خلال المراسم الجنائزية.

على الرغم من أن تمثال **با** يستدعي مزيداً من الدراسة الشاملة إلا أنه من المناسب متابعة هذه المقاربة الأولى من خلال السمات الرئيسية التي يحملها المتوفى والذي يتم تشخيصه. فوراء هذه الرموز تختفي العديد من الرسائل ذات الطابع الديني والاجتماعي التي يجب أن تفهم من عهد المرويين، ولكنها تغيب عنا في معظم الأحيان.

---

[118] ربما كان الطائر **با** رمزاً لتزيين أهرام الملوك (راجع إكتشاف أجزاء من التمثال لابرونزي مثبت على قاعدة بالكرّو، كندال 1999 أ، 31)، كما أن المقابر الخاصة تتبع، مرة أخرى، النموذج الملكي.

الشكل 35

لنبدأ بالقرص الشمسي، إما أن يكون مثبتاً على رأس التمثال[119]، أو أن يثبت بأوتاد على الرأس من الناحية العلوية. فمن الممكن إذن أن يكون صخرياً، كما يمكن أن يكون خشبياً (الشكل 35). يتم رسمه بالصلصال الأصفر وأحياناً يتم إبرازه بالنقوش. يعطي نموذج تمثال بيستو مالوتون[120] المرمّم مثلاً رسماً لإكليل زهرة نباتية تشبه تاج الغار أو نبات الآس العطري (ريحان شامي)، ويعبر عن النصر. وهذا يذكرنا بالتاج الذي كان يلبسه بعض الموتى في مصر الرومانية[121] الذين ظلت صورهم في أذهاننا بفضل الرسومات في الفيوم[122].

يجعل الانتقال من الحياة إلى الموت الفرد في حلقة متصلة من الخلود المرتبط بالشمس والذي يجعل المتوفى يولد كل يوم. فمن المفهوم أن الرمز الشمسي ظل يتوج تماثيل الموتى. بيد أن موضعه على قمة الرأس يوحي رمزياً بالرغبة في إنعاش الجسد واستئناف وظائفه الحياتية، على طريقة القرص الذي كان يرسم داخل التوابيت الرومانية بمصر تحت رأس المومياءات[123].

الشكلين (36) و(37)

كانت لدى الحلي والأزياء التي ترتديها التماثيل أيضاً دلالاتها ولكنها هذه المرة تعبر عن المكانة الاجتماعية التي كان يعيشها المتوفى. أحد أشهر هذه الحلي القلادة. النماذج الأكثر رمزية هي تلك التي تحتوي في مركزها على دمية للإله آمون، كما أنها لا توجد إلا على رقبة البيستو[124]. نجدها أحياناً مع قلادات أخرى طويلة، القلادة القصيرة التي تحتوي على أحجار فكأنما كانت خاصة بالأمير الملكي فقط. عصبة الرأس، وهي عصبة بسيطة، تحتوي على شارة (الشكل 36) أو كما نراها على هيئات مختلفة (الشكل 37) تشير إلى طبقة خاصة يصعب التعرف عليها، على الرغم من أن وجودها كان متفق عليه على رأس العشرات من الأشخاص في المواكب الجنائزية المصورة على جدران المعابد الملكية. يمكن أيضاً أن تكون مجرد سمة بسيطة تتعلق بمراسم الدفن كموروث لتقليد مصري تم

---

[119] وينيغ 1978، ص 230.
[120] وولي وراندال ماكلفير 1910، ص 1.
[121] الطابع الجنائزي لهذه التيجان أكثر تأكيداً من أن الصور المصطنعة للأحياء ولم يتم وضعها على المومياوات إلا عند الوفاة. هذا مع هذا التغيير، تمت إضافة التاج إلى الأوراق الذهبية أعلى الطلاء. هذا التاج كان معروف أيضاً للمرويين، بما أننا نجده على رأس أحد التماثيل الضخمة في معبد طابو (روندو 2011، ص 5 أ- ب).
[122] دوكسياديس 1995، ص 174).
[123] ميكس 1991
[124] غريفيث 1924، ص 176.

ممارسته من قبل الشخصيات التي تتبع الجنازة، كما يشير إليه الديكور المرسوم على المزهريات التي تم العثور عليها محطمة على واجهة الأضرحة في الكرّو[125].

الشكل (38)

تعتبر السترات والثياب والتنورات الطويلة ذات الحواف الزخرفية معياراً للتمييز الاجتماعي بين النخبة. كان المرويون الذين يشغلون مناصباً أقل درجة يمثُّلون على هيئة جذع إنسان بدون رأس ولا أطراف مرتدياً سترة قماش قصيرة حول الخاصرة أو تنورة بدون زخرفة. يمكن أن تكون أحذية بعض الأفراد[126] محفورة مباشرةً على حجر التمثال (الشكل 38)، أو أن يكون منفصلاً عن التمثال (من الحديد على الأرجح) ويتم تثبيته على الثقوب المحفورة بين الأصبعين الأول والثاني للقدم[127].

الفروقات بين الطبقات الاجتماعية تحددها إذن الملابس المصوّرة على التمثال وتفاصيل المجوهرات. ومع ذلك، فإن الفهم السياسي الكبير لتوضيح هذه السمات لا يؤثر سلباً على الخاصية الدينية لهذه المصورات التي ربما تم إيجادها لتوضيح سلطة الحياة ما بعد الموت شريطة تصوير هيئة المتوفى في أحسن حالاته في مواجهة الموت.

أغراض أخرى تتبع المتوفى لإكمال التجهيز الجنائزي للتمثال[128] بدءاً من العصا. هذه السمة التي ترافق صور الشخصيات البارزة والملوك في وادي النيل حاضرة في مصر منذ المصاطب الأولى في الإمبراطورية القديمة. فهي تمثل السلطة الممارسة على الآخرين ولكن تجسد أيضاً، في السياق الجنائزي، الحكمة التي تقود خطى المتوفى في رحلته نحو العالم السفلي. تمسك هذه العصا باليد اليمنى أو اليسرى بغموض، ونادراً ما نجدها إلى جانب المتوفى، ولكن في أغلب الأحيان توجد في وسط التمثال أمام الميت. إذن فهي ممسك بها إما بيد واحدة أو كلتا اليدين، الذراع مثنية ونهاية العصا موضوعة على الأرض، أو الذراع مطوية إلى الصدر والعصا ممتدة في الهواء. لا توجد هذه الصورة فقط على التماثيل المنحوتة وإنما أيضاً على الشواهد الجنائزية المروية سواء أكانت منحوتة[129] أو منقوشة أو مرسومة[130]. النموذج الموحد لهذه التماثيل الجنائزية يتمثل في عدة أوجه مع وجود المعالم

---

[125] دونهام 1950،ص 22، الشكل 5ب.

[126] في النقوش المروية، عادة ما ترتبط الأحذية بالعائلة الملكية والكهنة وكذا بعض الآلهة مثل أرينسنوفيس. وفقاً للتقاليد المصرية، ارتداء الأحذية (الصندل) كان ذو أهمية كبيرة في الإنتقال إلى العالم السفلي (البيت الأبيض 2009، ص 141).

[127] غريفيث 1924، الصفحات 67/2.

[128] فرانسيني 2009 ب.

[129] بريس 1997، ص 291.

[130] غريفيث 1911، ص 9.

الجنائزية التي ألّفت في مصر خلال فترة العهد الروماني، انطلاقاً من هذا التقارب، بلا شك، يجب البحث في وحي التمثيلات الكوشية[131].

يمكن أن يكون لرمز العصا القيمة الرمزية فقط إذا لم يتم تأكيده عن طريق باحثي الآثار الجنائزية. في النوبة السفلى، حيث نسبة الرطوبة أكثر اعتدالاً مما سواها في الوادي، فإن القبور المروية أسفرت عن بضع نماذج للعصي المرافقة للموتى في العالم الآخر. نلاحظ وعلى وجه الخصوص حالة وجود عينة سليمة يقدر طولها بحوالي 1.36 متراً عثر عليها في قبر بأبي سمبل[132]. أيضاً تلك التي عثر عليها بالقبر رقم 550 بكرنوق والتي- وفقاً للمنقبين- احتفظت بهيئتها اللامعة[133].

رمز آخر يظهر على يد تمثال **با** وهو سنبلة الذرة. عليه يجب تفسير الجسم المأخوذ عمودياً على هيئة كرة نباتية محدبة قليلاً تحتويها يد الميت[134] والتي يرتد صداها من عصا السنبلة الممسك بها إشارة إلى السلطة المستمدة من حكام مروي. كنّا نؤيد ولفترة طويلة فرضية مخروط الصنوبرالذي يعلو مزراق باخوس (رمح يتوج بحلية على الشكل كوز الصنوبر) ولكن يبدو أن هذا التفسير يعاني من الأخطاء على عدة أوجه. أولاً : ارتباط مزراق باخوس بعالم الجنائزيات ليس أقل من عادياً، ثانياً: الفرضية مبنية في الأساس على التراميم القديمة والتي قامت بإفساد تمثال با[135]. مقاربة سنبل الذرة على العكس تعززها النقوشات الأيقونية الكثيفة التي يبدو سهلاً التعرف على الجسم بوسطها. الرمز الذي يشير إلى إعادة الميلاد والذي تجسده السنبلة النباتية أصبح موضوعاً يتلاءم كلياً مع التطلعات الدينية للمتوفى ودورة الموت والعودة إلى الحياة ومرتبطاً بالفيضانات والثقافات وكذا مواسم الحصاد.

عنصراً آخر من تمثال با يتمثل في صورة يد ممسكة بحلقة من الحلي مرتدة إلى الصدر، تمكن المكتشفون من خلالها التعرف على صليب عنخ[136] أو المزهر. فقد بدا مناسباً أن نرى إكليلاً طبق الأصل من ذاك الموجود على الكتابات النقشية الجنائزية في مصر الرومانية[137] والتي يقتصر تمثيلها أيضاً في شمال مملكة مروي، أيقونيتها النقشية المنتشرة على نطاق واسع على الجانب الآخر من الحدود، اخترقت النوبة Dodécaschène، كما يدل على ذلك، على سبيل المثال، البروز المحفورة

---

[131] على سبيل المثال، نلاحظ وجه الشبه بين النموذج المروي المنسوب إلى النوبة والشاهد الأمبراطوري الذي تم إكتشافه في سملوط في مصر (فرانسيني 2009 ب، ص 72، ص 1 أ – ب).

[132] أميري وكروان 1935، ص 444، الشكل 1/426.

[133] وولي وراندال ماكلفير 1910، ص 206.

[134] نفس المصدر، ص 5، رقم 7000.

[135] أنظر مثلاً حالة تمثال E 7005 جامعة بنسلفانيا متحف الآثار والانثروبولوجيا، حيث الأقدام وجزء من الأجنحة والرأس والقرص الشمسي والذراعين وكذا العصا والكرة النباتية تمت إضافتها إلى البقايا التي تم العثور عليها أثناء الحفر (أوكنور 1994، ص 13، وولي وراندال مكلفير 1910، ص 5).

[136] راندال مكليفير ووولي 1909، ص ص 16، فقرة 5000 و 8، فقرة 7029.

[137] فرانسيني 2009 ب، ص 72، ص 2 أ – ج.

على قلاع قرطاسي[138]. معالجة السطح الأملس لهذا الجسم الأسطواني، المتوقع أن ينتج الشكل على هيئة تويجات زهرية، يحل محل تبسيط مشترك على التوابيت الرومانية[139]، كما رسمت تفاصيله بصورة عامة ولم يتم نحتها وتجسيدها على تمثال با. يمكن للتاج أحيانا أن يحل محل المنديل الممتد على طول الجسم كما تشير إليه الكتابات النقشية على شاهد قبري بمنطقة كرنوق[140]، حيث يظهر التمثال شخصاً يمسك بجسم تظهرعليه العوارض الخشبية والعصي السنبلية معطية الشكلها السنبلي طبق الأصل. مهمة هذه السلسلة، والتي قد تكون مرتبطةً بالتاج الجنائزي الذي يجسد حكمة المتوفى في مصر، يمكن أن تتم مقارنة رموز الثراء بدورات الطبيعة والتي يتم إنتاج النماذج الدينية[141] عليها. كما بالنسبة للعصا فإن الاكتشافات الأثرية جاءت لتؤكد وجود الحلي الزهرية داخل المقابر المروية. هنالك أيضاً اكتشاف لتاج وضع بالقرب من رأس المتوفى داخل القبر 2006 بفراس[142]، وبقايا من التيجان وضعت في نفس المكان بالقبور 11 و 19 و 184 بكرنوق[143]، أيضاً زخرفة لمزهرية مروية بمقابر شبلول تمثل أقحوان[144] إكليلي كانت تستخدم قديماً في مصر الرومانية[145] في صنع التيجان. كانت تقنية صناعة الأكاليل ذات التويج معهودة بالنسبة للمرويين، حيث مثلوها على الجرار المنقوشة على صيغ طويلة جداً مغطيةً طاولات الذبح[146].

أخيراً، نذكر بأن تماثيل **با** كانت قد رسمت في الأصل بالألوان الزاهية، كما لوحظ عند اكتشافها بقايا صلصال أحمر على مستوى الجلد، وأصفر على مستوى الشعر[147]، وأخضر على مستوى الريش.

2.2.3. طاولة القرابين

عنصراً آخر ينتمي إلى الأدوات الطقوسية المدرجة على واجهة القبر المروي، يعرف بطاولة القرابين (الشكل 39)، مدرجاً هو الآخر على الجهة الشرقية للهرم. هذه الطاولة موضوعة على كتلة صغيرة من الطوب على هيئة منصة يصل طولها إلى خمسين سنتمتراً، عادةً ما تكون في واجهة المعبد[148] إن لم

---

[138] ويغال 1907، الصفحات 1/22. في الديانة، توابيت منقوشة تظهر نقوشاً مماثلة (ريزنر 1910، ص ص 75–76).
[139] بارلاسكا 1966، ص ص4/5 و 3/31.
[140] وولي وراندال ماكلفير 1910، ص 13 رقم 7085.
[141] في العالم المتوسطي، الأكاليل التي تمثل الإحتفال بدورات الطبيعة يتم عرضها بانتظام بين يدي الآلهة الإغريقية(إيزلر كيريني 2007).
[142] غريفيث 1925، ص 138.
[143] وولي وراندال ماكلفير 1910، ص 29.
[144] وولي وراندال ماكلفير 1909، ص 40، ص ص 5/26.
[145] غيوم كواريبه 2002.
[146] وولي وراندال ماكلفير 1910، ص 45، رقم 8175.
[147] البيت الأبيض 2009، ص 141.
[148] ميليه 1963،ص 47.

تكن تحل محلها. نأخذ على سبيل المثال حالة القبر 192س بقصر إبرم، حيث الهرم الوحيد الذي لم يشهد وجود معبد، ففي المقابل يوجد رعن إلى جانب طاولة القرابين[149]. غالباً ما توضع الطاولة على حافة الحفرة في إتجاه المنحدر، ونهايتها متجهة إلى القبر، فهي تجسد الأداة التي تسمح بالتفاعل بين الأموات والأحياء. يراق الخمر على هذه الطاولة حيث يمكن أن يسيل على الأرض، كما يمكن تقديم القرابين إلى الميت لتنعشه وتعيده إلى الحياة لدى وصولها إليه.

الشكل (39)

كان إنشاؤها في الأصل من أجل تخليد المعابد، فإن هذه الطاولات تم تكييفها لخدمة المراسم الجنائزية ومن ثم انتقلت إلى النوبة خلال الغزو المصري. أظهر مؤخراً اتصالاً وثيقاً بأسطورة إيزيس الذي يزور جزيرة بجيح (أباتون) بصفة يومية لإراقة اللبن بأوزيريس على إحدى طاولاتها الخمس وستين، أي طاولة عن كل يوم في السنة[150].

تم العثور عليها في بعض المقابر النبتية[151]، فقد تنوعت طاولات القرابين في العهد المروي. تصنع الطاولة بصورة عامة من الحجارة، لكن تم التعرف على بعض النماذج منها مصنوعةً من الطين المحروق (الشكل 40)[152]، وبصورة نادرة من البرونز[153]، في حين أن الخزف المصقول يبدو أنه مقتصراً على التمثيلات الملكية[154].

الشكل (40)

شكل هذه الطاولة مشابه للطاولة المصرية الموروثة عن Htp ثلاثي الأحرف الهيروغليفية، والتي تظهر قرباناً على طاولة أو على سجادة. الشكل المربع أو المستطيل هما الشكلين السائدين[155] واللذان يظهران بصورة واسعة مع إمكانية وجود أشكال أخرى مختلفة[156].

تعبر الزخرفة المعقدة عن التأثر بالنماذج التي تم استخدامها في مصر البطليموسية والرومانية، كما تعرب أيضاً عن التطور الأسلوبي على مَر القرون. فالطاولات المصرية تحتوي على العديد من أوجه المقارنة مع النماذج الكوشية إلى الحد الذي يجعل التفرقة بين النموذجين صعبة أحياناً. إذا أخذنا مثلاً

---

[149] ميلس 1982، ص 50.
[150] إصدارات أخرى من الأسطورة توحي بزيارة أسبوعية، في اليوم الأول من كل أسبوع.
[151] سميث 2007، ص 7.
[152] أسفل هذه الطاولات تظهر آثار للطباعة عادةً ما تشبه مونتاج على البساط.
[153] النبتي (ويلسبي 2010، ص 19)؛ المروي (غارستانغ 1916، ص 15، ص ص 2/4).
[154] راجع النماذج 0851 , 0834, 0828, 0817-0820, 0811 A-B, 0805, 0073 A-E, REM 0061
[155] أظهرت دراسة على جميع الطاولات المسجلة أن 132 نموذج من أصل 196 تم دراستها كانت بهذا الشكل، أي 67 % (هينسوورث 1976).
[156] بعضاً منها يمثل قمتين، كل واحدة منها في إتجاه مختلف.

نموذج طاولة القرابين المنحدرة من إليفانتين[157]، فإن لدينا فرصة كبيرة للحصول على المكونات الأساسية لطاولة القرابين المروية الحديثة (الشكل 41)، أي المذبح المركزي للقرابين وإناء إراقة الخمر وباقات اللوتس. حتى الحفر الجنائزي الذي يبدأ عادةً بالدعاء لبتنسنس، فإن أوزيريس لا يستوي إلا بذكر الدعاء المروي الرئيسي لإيزيس وأوزيريس. وجد هذا الإنسجام في الأسلوب بنفس المستوى في جميع الأراضي المصرية، كما تدل على ذلك اكتشافات أخميم[158] أو تيرينوثيس[159] أو ماريوتيس[160].

الشكل (41)

بينما كانت طاولات القرابين المصرية القديمة تعطي الأولوية لنصوص الصلوات، فإن هذه الأخيرة بدأت في الاختفاء تدريجياً بسبب كتابة نقشية يمكن وصفها على الأجدر بالموجزة والتي انتشرت بصورة واسعة خلال الفترة الرومانية. فمن هذا النموذج ينبع الإنتاج المروي. تتبدل تقنية الديكور إذن بين النحت والتمثيل البارز مع مراعاة التمثال الكبير في التكوين. هنالك نمطين أساسيين ترتكز عليهما تقنية الديكور: القرابين (الشكل 41) ومشهد القرابين (الشكل 39)[161].

فالأول يبين المؤن والأطعمة، حيث يمكن رؤيتها من الأعلى أو من الأمام، تستريح على المذبح. هذه الصور تعمل كبدائل سحرية يتم تفعيلها بواسطة إراقة الخمر. الأنماط السائدة هي الخبز والمزهرية Hst[162]وقارورة[163] ذات عروتين (أحياناً مع مغرفة) واللحوم (الدواجن أو قطع اللحم البقري) والخضروات. الخبز عادةً ما يتم تصويره على هيئة حلوى (جاتوه) مسطحة الشكل ودائرية توضع في الشكل أزواج (4 أو 8). فهو يتطابق مع النموذج (ب) الذي عرفه غريفيث بخصوص المباركات الجنائزية، كما يبدو أنه العنصر المخصص الذي يستقبل عملية الإراقة.

يجسد النمط الثاني زوجاً خالداً[164] بداخله؛ أنوبيس من المحتمل أن يكون متبوعاً بنفتيس أو إيزيس أو مآت أو نوت. يتم تصوير الأشخاص في الواجهة في حالة إراقة الخمر بواسطة إناء، إما على المذبح أو على القربان مباشرة. هذا المشهد والذي يبرهن التأثر العميق بالعقيدة الإيزيسية، تم اكتشافه لأول مرة في العهد المروي على طاولة القرابين الخاصة بـ " تيديكن" أمير ملكي مدفون بمقابر مروي الغربية

---

157 بيماند 1992، ص ص 15/11.
158 كمال 1906، ص 37، رقم 23148.
159 الناصري وواغنر 1978، ص ص 29/76.
160 عبدالفتاح 2006، ص 33، الشكل5.
161 لتصنيف جزئي للديكور منفصلاً عن مشهد الألوهية، أنظر هوفمان 1991 ب.
162 إميري وكروان 1935، ص 29 أ. يوجد هنا كتابة معاهدة، لأنه لم يتم اكتشاف أي من هذه المزهريات داخل القبور المروية. غالباً ما توجد محمولة بواسطة الآلهة التي تجري عملية الإراقة، أو مثبتة والماء يتدفق رغم كل شيء من صنبور.
163 غريفيث 1911، ص 23، رقم 117.
164 نادراً ما يتم عرض آلهتين، أو أن يمثل المتوفي نفسه آلهة.

في نهايات القرن الثاني قبل الميلاد. يتطابق إذن كلياً مع المشاهد التي تم اكتشافها على طاولة القرابين في مصر البطليموسية، حيث تتم عملية السكب من الخالدين على الطاولة أو على كفتي الميت. في النوبة، إنتشر هذا النموذج تدريجياً بين النخب غير الملكية بالأخص في أقصى شمال المملكة[165]. يسمح التوزيع الجغرافي لمكتشفات طاولات القرابين الأثرية بتسليط الضوء على معالم النظام الإداري للمحافظات، على سبيل المثال صادنقا وصاي وفرس وكرنوق. يشير تبعثر هذه التماثيل إلى مستوى الاختلافات التي تفصل النخبة عن المركز وكذا الإداريين في المحافظات. هذه أيضاً من الحالات النادرة حيث يتم استخدام الكتابات النقشية الموجودة على القطاع الخاص تماماً في القطاع الملكي في بداية القرن الأول الميلادي، كما يبرهن ذلك طاولة القرابين المكتشفة في جبل البركل (REM 0812) وكذا النقوش البارزة على معبد مروي الجنائزي.

تم تحديد الكثير من العناصر الأخرى على طاولات القرابين المروية، من بينها واحدة من أكثر العناصر ظهوراً وهي تمثال لحوض مجرّد أو متصل مع القمة من أجل تسهيل عملية إنسياب سائل الإراقة. فهو يأخذ أشكالاً مختلفة ابتداءً من الحفر البسيط رباعي الزوايا، يعلوه أحياناً سلّم[166]، وصولاً إلى الشكل التكفيف البيضاوي[167] (إطار مزخرف تحفر عليه النقوش).

يمكن أن يكون صليب عنخ أيضاً في الوسط أو في مجرى تدفق الماء. كل هذه الرموز يمكن ترتيبها على سطح الطاولة من أجل إراقة سائل الفضيلة الذي يعزز تجديد حياة المتوفى. بعض الحيوانات تلعب دوراً هاماً في هذا المشهد السحري، مثل الضفادع[168] والتماسيح النيلية[169] أو الأبقار (REM 0820) التي تشير إلى صورة القطيع المقدس الذي يُرضع الملك. العناصر النباتية أيضاً حاضرة، الورود أو باقات اللوتس وأفرع النخيل. هذه الأخيرة شهدت معالجة، حيث تم تطويرها من إستحضار الأرواح البسيط المنقوش (REM 1023) وحتى النحت الأكثر عمقاً (REM 0502). نموذج نباتي آخر[170] يمكن أن يكون مشابهاً لفرع النخيل، كما يبدو ممثلاً بين أيدي المسؤولين الذين يسيرون بصورة متتابعة على جدران الغرفة المروية في الفيلا[171]. على الرغم من أن هذه الأخيرة تذكرنا أكوام زهور اللوتس الظاهرة على المعابد المروية[172] أو على المعابد البطليموسية في النوبة السفلى[173]. بصورة

---

[165] أنظر مثلاً طاولة بيستو تاسميريس حوالي 100 ق م (توروك 2002، ص 65).
[166] وولي وراندال ماكلفير 1909، ص 36، رقم 5115. نموذج مشترك في محميات مصر الرومانية عليها نموذج مصغر من البحيرة المقدّسة.
[167] غريفيث 1911، ص 12، رقم 57.
[168] وولي وراندال وماكلفير 1909، ص 32، رقم 5100
[169] عبدالله 1982 أ، ص 86.
[170] نفس المصدر، ص 39، رقم 5124
[171] غريفيث 1912، ص18.
[172] شامبان ودونهام 1952، ص 21 ز.

عامة، تبرهن الكتابات النقشية على طاولات القرابين مرة أخرى أن مصدر الإلهام الدائم للطقوس الجنائزية الكوشية ذو أصول أجنبية.

يضاف في بعض الأحيان نصاً إلى المشهد المصور على طاولة القرابين. أصباغ حمراء تكسو نقوش بعض الإشارات توضح أن متعدد الألوان كان يلعب دوراً مهماً على هذا النوع من الأشياء. عادة ما يجري التصنيع على شكل مجموعة يسارية الدوران، نادراً ما تكون في اتجاه اليمين، والتي تلامس الحافة الخارجية للجسم. يتم توظيف اللغة المروية في هذا الجانب وإن كانت هنالك بعض الاستثناءات[174]. يأتي النص المعطى، والذي يمثل أكثر من ربع النص المعروف في هذه اللغة، تبعاً لتركيبات تقليدية لنماذج جنائزية (الوحدة الأولى.3.3).

لم تكن طاولة القرابين خلال الفترة المروية سوى وسيلة للعبادة الجنائزية، لكنها في نفس الوقت رمز انتشر وتم استخدامه بصورة واسعة ليشمل جميع أنحاء المملكة. كما أنها وجدت أيضاً على الشكل قطع على الحجارة اللوحية في بعض المقابر[175]. يساء تفسيرها على أنها طاولات الإراقة، في الواقع هي حجارة لوحية تستخدم في نظام إغلاق القبر، رسم عليها تماثيل لطاولة القرابين.

الشكل (42)

وبالمثل فإنه من الشائع أن نجدها محفورة أو مرسومة على قطع السيراميك، تعلوها قرون أبقار تحد قرصاً شمسياً (الشكل 42). فهي تجمع إذن بين رمزين من العقيدة الإيزياسية؛ الطاولة التي يراق عليها الخمر والتاج الهاتوري الذي يعني، في مروي، إقطاعة إيزيس، آلهة الجنوب[176]. إشارة إلى الإخلاص إلى إيزيس، أحيانا نجده معزولاً على منحدرات النيل أو الجبال[177]، هذا الرمز يعتبر ملجأً في حالة غياب معابد حقيقية. وهذا يؤكد على أهمية عبادة الآلهة في القطاع الخاص[178].

3.2.3 الشاهد القبري

في العهد النبتي، ورغم انتشار نموذج الهرم والعديد من أثاث العبادة الجنائزية، إلا أن الشاهد القبري يظل حقاً ملكياً مقتصراً على الملك وأحياناً لزوجة الملك. هذا ولم يشرع في استخدامه إلا في العصر

---

[173] رويدر 1930، ص 44.
[174] على سبيل المثال في المقابر الخاصة في مدينة مروي (غارستانغ 1911، ص ص 2/57)، حيث تحوي طاولة القرابين نصاً إغريقياً، والذي يمكن أن يكون مصدرها مجتمعاً أجنبياً صغيراًمستقر في العاصمة (عبدالله 1982 ب).
[175] جنكر 1925، ص ص 145/12.
[176] كندال 1982، ص 27، الشكل 23، 1997، ص 187، رقم 188.
[177] بويافال 1976، ث 2.
[178] لتحديد جزئي لخريطة الإكتشافات المواد التي تحمل هذا الرمز، أنظر توماندل 1987.

المروي. يظل تحديد موقعه صعباً، كما هو الحال بالنسبة للأغراض ذات الصلة، بالرغم من أننا نعتقد في بعض الأحيان أنه داخل المصلى الجنائزي أو في واجهته.

الشكل (43)

هنالك نوعين من الشواهد القبرية، الأول يحتوي فقط على وسيط لكتابة النص الجنائزي. على الشكل دائري (الشكل 43)[179] أو مستطيل، يمكن أن يحاكي أيضاً الشكل طاولة القرابين المربع ويكون ملحقاً بقمة محدبة[180][181]. أما النوع الثاني، وهو تصويري، يستقبل تمثالاً للميت (الشكل 44)، قد يكون منفرداً أو مرفقاً معه تمثال آخر. يحتوي أحياناً على نص،في غالب الأحيان يكون تكميلياً للكتابة النقشية ومضافاً عقب إنهاء عملية النحت في المساحات الفارغة[182].

(الشكل 44)

بينما لا يستخدم في النوع الأول سوى عملية النقش، فإن الشاهد التصويري يستخدم بالمقابل طيف واسع من التقنيات في عملية إنجازه؛ النحت[183] والزخرفة (الشكل 45) والرسم[184][185]. السمات التي يحملها الأشخاص هي التي وصفت من خلال تمثال با والحلي والملابس والأحذية والعصا وعود السنبل والمنديل الجنائزي والإكليل بالإضافة إلى جريد النخل (الشكل 44). هذه التماثيل الإنسانية المفصلة إلى حد ما (المرتبة الإجتماعية للفرد، العري لدى النساء دلالة على الخصوبة والإنجاب، ...الخ) معاصرة لتمثال با (نصف إنسان ونصف طائر)، فبالتالي يمكن إدراجها على الأجدر في الفترة المروية المتأخرة.

الشكل (45)

كما كان في أغلب الأحيان العمل على الحجر خلال العهد المروي، فان الحجر الرملي كان مفضلاً أيضاً نسبة لتوفره وحجمه الذي يساعد في العمل عليه. رغم الاعتماد عليه بصورة كبيرة إلا أنه غالباً ما يترك بقايا في حالة سيئة جداً من الحفظ من الصعب قراءتها أو ترميمها. بعض الشواهد الحجرية ما

---

[179] يظهر أحيانا قرصاً شمسياً ذو أجنحة.

[180] في هذه الحالة، يمكن ًياغة فرضيتين: إما أن يكون الشاهد نفسه طاولة الإراقة، أو أن يكون إطار طاولة القرابين على هيئة شاهد.

[181] فيلا 1982 أ، الشكل 195.

[182] وولي ورانداال ماكلفير 1910، ص 11 رقم 40229.

[183] ويليامس 1991، ص 98.

[184] نموذج وحيد مهشم تم العثور عليه بشبلول يحوي تمثيلاً مرسوماً لأنوبيس حاملاً جره Hst ويجري عملية الإراقة (رانداال ماكلفير وولي 1909، ص 38، رقم 5122). كما يمكن أن يكون جزءاً للقائم الأيسر لباب معبد، في هذه الحالة يصبح النموذج الوحيد للزخرفة.

[185] وولي ورانداال ماكلفير 1909، ص 14، رقم 7082.

زالت تتميز بوجود متعددة الألوان[186]: الأحمر لكتابة النص، والأصفر للقرص الشمسي وأجنحة النسر، والأحمر مرة أخرى للصل المقدس.

3.3. الكتابات الجنائزية

انتشرت منذ القرن الأول الميلادي بصورة واسعة كتابة النصوص على الشواهد الجنائزية والتي يشار فيها عادةً إلى الوظائف التي كان يمارسها المتوفى حين وفاته وكذا المؤهلات التي نالها. هنالك مصدر وثائقي قيم مترجم، يسمح هذا المصدر برسم الخطوط الأساسية لإدارة ذات بنية وتنوع لا نعرف لها حتى الآن مثيل في بقية الأراضي المروية. كتابة النصوص، والتي كانت مقتصرة على نخبة معينة، عثر عليها بنسبة 10 % من الأضرحة في بعض المقابر، كما تشير إلى أنهم قادرين على تحمل أعباء إدارية وكرامات دينية.

تظهر نماذج النصوص الجنائزية في بداية الأمر في إطار عبادة الملك[187]، ومن ثم أفراد العائلة الملكية، قبل أن يتم تطبيقها على النخب غير الملكية. أشار السيد توروك[188] إلى أن عملية التكيف هذه لا تتم دون خسارة أو تعديل.

1.3.3 أشكال الصيغ الكتابية

يوجد نوعان من الكتابة الجنائزية: الكتابات المعاصرة للدفن، وأنواع أخرى نادرة وهي عبارة عن إضافات لنصب تذكارية[189]. أما في السياق غير الملكي فإن كلا النوعين مكتوبين على طريقة المخطوطات المروية. تتكون الصيغة التقليدية للكتابة أيضاً من:

دعاء الآلهة. على الشكل دعاء، يمكن تكراره عدة مرات في النص، تدعى آلهة الموت بتخصيص الدعاء لإيزيس الذي، في أغلب الأحيان،يسبق إسم أوزيريس، في صورة تطوير عبادته داخل الحوض المتوسطي في نفس الحقبة.

تسمية المتوفى. الجزء الأكثر أهمية في إطار التلاوة، يحتوي على عدة متغيرات ويكون متبوعاً في أغلب الأحيان بتبشيري[190].

---

[186] ريلي وفرانسيني 2011.

[187] تعود الشهادات الأولى إلى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد. الكتابات الجنائزية تحمل إذن دعاء للآلهة، ذكر أقارب المتوفى، وتنتهي بالمباركة، في حين أن الكتابات النقشية مخصصة للإنسان أو الآلهة، وأن الحجر الرملي يحل تدريجياً محل الغرانيت المستخدم.

[188] توروك 2002.

[189] أقل من عشر وثائق تبين القرابين التي يكرسها الفرد لعبادة السلف، تعيد إحياء الصلوات والنقوش الماضية أثناء المراسم الجنائزية (ريلي 2003).

إثبات البنوة. عادة ما يبدأ باسم الأم، الشيء الذي لا يمل من تغذية النقاش حول دور المرأة في مملكة مروي[191].

في ظل غياب الأمومية على رأس المجتمع المروي، فإن هذا التفضيل يمكن أن يترك إيحاءات النسب الأمومي، أو ببساطة الإشارة إلى امتياز مرتبط بالأمومة ورعاية الآلهة إيزيس.

المسميات الوظيفية، والوظائف والقرابة. هذا النوع من الكتابات الجنائزية لم يظهر إلا في القرون الأولى الميلادية، في النوبة السفلى والنوبة الوسطى. يهدف النص إلى الإشارة إلى الحالة الاجتماعية للمتوفى، وذلك بتعداد وظائفه وأقاربه لأشخاص يشغلون مناصب رفيعة. يسمح بإعداد دليل للتكهنات التي يتم ممارستها، لآلهة شرفية والأماكن التي تعتبر حرماً أو محراباً لهم.

تشير السمة المفخمة لبعض هذه الأوصاف (أنظر REM 1091) إلى مدى إمكانية القبر، على عكس صورة العائلة أو العشيرة من حيث السلطة والنفوذ الاجتماعي. وجدت الكتابات الجنائزية ذات المكانة الرفيعة من هذا المنهج في نفس الحقبة على الشواهد الجنائزية التي تم اكتشافها في مصر[192]. قام كلود ريلي بالتمييز بين الوصف الفردي للمتوفى والوصف المتعلق بأقاربه[193]. ففي الأول تسود الأعباء الإدارية الكهنوتية (النمل، الكاهن، بيلموس)، والتي تكون مرتبطة بمدينة أو إقليم. أما في الثاني، فإن النص يسلط الضوء على الأقارب المرموقين للمتوفى، سواء كانوا قريبين أم بعيدين (شقيق، قديس، أخت، أم، أبن أخ، إبن أخت، أو بنت أخ أو أخت). في النوبة السفلى، تغذي المناصب الدينية بصورة عامة صلة وثيقة مع عبادة إيزيس والقرب الجغرافي لمحرابه في فيلاء. يفرض موقع الإقليم الإستراتيجي بالنسبة للأنشطة التجارية نظام إداري وهرمي ثقيلين، نلاحظ تردد بعض الألقاب مثل "إستراتيجي المياه" (pelmos ato-li-se) أو "الأراضي/ الأقاليم" (pelmos abd-li-se)، حيث يمكننا فهم الآثار المترتبة على إدارة الملاحة النيلية والأنشطة التجارية والمباني الرسمية. ربما نجد أيضاً آثاراً لهذه الأنشطة في بعض شواهد القبور التي عثر عليها في قصر إبرم[194].

أحياناً نجد أن لقباً من الألقاب مرتبطاً بالعاصمة المروية له الأسبقية بين تلك التي تشير إلى الأعباء المحلية. هذا يعكس الشكلاً من أشكال الولاء الحكومي للسلطة المركزية بقدر وساطة الشخصيات

---

[190] كو أو كوي (var. qe, qewi) وأحياناً l-o أو l-owi (إذا كان الاسم يحتوي على أداة في آخره)، والذي يمكن ترجمته ب "هذا / هذه" (ريلي 2007، ص ص 97، 98).

[191] موركو 1999، ص ص 210 - 214.

[192] كما هو الحال في النوبة، فالنسب والمهام التي كان يمارسها المتوفى هي ما يتم نقشها على الشواهد الجنائزية، كما يشير إلى ذلك مثال ترجمة النص القبري الذي تم العثور عليه في أبيدوس وتم حفظه في متحف اللوفر، ويرجع تاريخه إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين: "أبولينيوس، إبن هيرموينيس، الكاهن الأكبر والمفوض للقرابين.

[193] ريلي 2007، ص 106.

[194] ميليه 1982.

البارزة في الأقاليم. وفقاً لتوروك[195]، فإن النزعة المتأخرة لتكاثر النسب اللامع والألقاب الأسرية يعتبر أيضاً شاهداً على القوة بقدر ما هو إشارة لتباطؤ السلطة الحقيقية، والتي نحاول برهنتها بشتى الطرق. يبدو أن هذه الفكرة تؤكد عليها شهادات الكتابات الجنائزية الأخيرة، والتي نقشت عليها انتماءات نواب الملوك أو أمراء ملكيين بالشكل غير دقيق، كتأكيد أخير على قوة تم إسقاطها. يتجه التجمع القبري الأسري والذي شهدناه في العديد من المقابر المروية إلى هذا السياق، وتشير إلى الرغبة في الاحتفاظ بالامتيازات والألقاب والوظائف داخل مجتمع ما. وعلى الرغم من عدم إثبات توارث الأعباء والمهام، إلا أنه كان واجباً على النخب المحلية رعاية هذه المهام الإدارية والدينية داخل الجيل الجديد لشغلها[196]. لا تتفق جميع النصوص مع هذا الإطار المبسط، وكثير من الكتابات تحتوي عناصر إضافية تدل على مكانة المتوفى أو أنشطته. تطوير هذه الأجزاء بأبعاد مختلفة غالباً ما يعتمد على المساحة المتاحة لنقش النص[197].

البركات. إيحاء مصري آخر للدين المروي ونصوصه الطقوسية، تنتهي الكتابات الجنائزية بالشكل من أشكال البركات والقرابين للمتوفى[198]. هذه الصلوات موجهة للآلهة وليس للبشر من أجل إطعام المتوفى وتمديد حياته الأبدية. عادة ما تبدأ ب"الماء" (ato) لتحضير إراقة الخمر، ومن ثم 'الخبز (at)، في القرون الأولى الميلادية تم إتْباع هاتين الصيغتين بصيغة ثالثة تتمنى للمتوفى (وجبة هنيئة) (ريلي 2010). تمثل هذه الصيغ الثلاث الأساس الشائع جدا بالنسبة للبركات، ومن الصعب حالياً فهم ما تشير إليه الصيغ الأخرى، بالرغم من أن "الحليب" يعتبر إشارة لإراقة الخمر في السياق الملكي.

2.3.3 جغرافيا الوظائف

في أواخر العهد المروي، تتيح لنا الإشارات المتزايدة للإنتماءات وسيرة المتوفى التعرف على بعض الأسر الكبيرة، كذلك الهيئات الدينية المرتبطة بنفس مكان العبادة. فمن المرجح في ذلك الوقت، أن مدارس الكهنة إستطاعت أن تجمع ممارسة الطقوس التعبدية في عدد من الأضرحة، أو على العكس، ممارسة مختلف الشعائر بنفس المعبد.

تمكننا العروض المنتظمة لقوائم المهام التي تمارسها سلسلة من الأشخاص المدفونين بمقبرة ما من تمييز بعض المناطق الجغرافية التي تنحدر منها هذه المجتمعات أو الهيئات. أيضاً، نلوت (كرنوق)

---

[195] توروك 2002، ص 73.

[196] بجبل عدّا، على سبيل المثال، نلاحظ توارث الأسماء؟ تيمي العاشر في نفس العائلة خلال ثلاثة عقود (عبدالله 1982، ص 59).

[197] النصوص المحفورة على العتبات أكثر تركيزاً لأنها ذات مساحة أكبر للحفر.

[198] قام بترتيبها غريفيث من A وحتى L، وأضاف هوفمان X، توجد على الأقل في أحد المباني (العتبات أو القوائم أو طاولة القرابين أو الشاهد القبري).

يعتبر مكاناً لدفن البيستو (والي) شمال النوبة وعائلته. تم هجر العاصمة الإقليمية أيضاً خلال القرن الأول الميلادي من فرس، والتي تعتبر مركزاً إدارياً كبيراً للنوبة السفلى. تحوي تيني (شبلول) عدداً كبيراً من مبعوثي مصر الرومانية. كان جبل عدّا معقلاً لعائلة وايكي. صادنقا جنوباً، موطن سليكين (أهم الألقاب المعروفة على مستوى النوبة الوسطى). تحوي أرمينا غرباً عدداً كبيراً من الكهنة، Nag Gamus كان في خدمة مقبرة الكهنة بقصر إبرم. لكن لا يعني بالضرورة اجتماع مقابر العشيرة الواحدة بمقبرة معينة أن الشخص كان يشغل مناصباً في مكان الدفن. يبدو أن تنقل النخب الذي أكدته ألقابهم والمناطق الجغرافية التي خصصت لهم ليحكمونها، والتي تختلف أحياناً بين الآباء، ما زالت موجودة. فمثلاً £llhor، البيستو الذي تم استدعاؤه لشغل مهام بمروي وتم إرساله للشمال تحت لقب كور، يبدو مثيراً للانتباه. مثالاً آخر للتنقل، مسار أبراتوي[199]، المدفون بكرنوق، والذي عرفنا من خلال شاهده القبري وطاولة القرابين أنه Madasemete بالنوبة السفلى، رسول أميري لآمون، والياً للنوبة، الرسول الأول للنوبة لآمون بالنوبة السفلى، كاهناً لأماناب لمنطقة قصر إبرم، كاهنا للمنطقة الممتدة من بوكا وحتى حدود قصر إبرم، aribet منطقة تويتي، مخططاً إستراتيجياً للإقليم، حاكماً لفرس، قائداً لسيملو، تاباكو للمنطقة الممتدة من الحدود النوبية السفلى وحتى حدود تويتي، وأخيراً الكاتب الأعظم، في السياق الملكي.

بالمثل، فإن الاجتماعات بين أفراد عائلة كهنة مرويين وأفراد عائلة مصرية كانت معروفة، عندما تعمل هذه المجموعة في نفس المعبد. مثلاً، عائلة وايكيي يجسد تماماً هذا الجسر الثقافي بين أفراد المجموعتين. كتاباتهم على الشواهد الجنائزية، أيضاً الكتابة الديموطيقية على معبد فيلا[200] تخبرنا عن إمكانيات كبار الشخصيات ذوي الأصول الكوشية بشغل مناصب في الجزء المصري من هذا الصرح، في حين يتم دفنها بالأراضي المروية.

لا تزال مسألة الاختلال قائمة بين الشمال وقلب المملكة فيما يخص استخدام النصوص الجنائزية. ويستند جزئياً على حقيقة أن عدداً أكبر من مواقع الدفن تم اكتشافها في النوبة السفلى، مقارنة مع إقليمي الكربة والبطانة. تؤكد الحفريات التي أجريت على مقابر مروي الخاصة واكتشاف مقبرة ببربر[201] بأن النصوص موجودة فعلاً، لكن الاكتشافات التي تم إنجازها تعتمد بصورة أكبر على الصُّدف، فهي إذن نادرةً جداً. بإتباع قاعدة مشتركة بين جميع الحضارات القديمة، فإن جزء ضئيل جداً من السكان يجب عليهم معرفة قراءة وترجمة النصوص الجنائزية، حيث الملاذ المنتظم للكتابات النقشية الغزيرة داخل الأضرحة وأماكن أخرى من أماكن الحج أو الإخلاص في العبادة كالضريح.

---

[199] كاربير 2001.
[200] غريفيث 1935، فقرة 421.
[201] بشير 2010.

الوحدة الثانية
المقابر التلية

نتيجة رؤية واسعة الانتشار منذ القرن التاسع عشر الميلادي، جعلت من مروي مملكة مشهورة على وجه الخصوص بأهرامها الملكية، وجود جميع أراضيها على الشكل أضرحة يثير العديد من التساؤلات. تكفي زيارة بسيطة لمهد العاصمة القديمة ومؤسساتها العديدة والمتسلسلة لطرح السؤال التالي: أين توجد مقابر السكان المدنيين، أولئك الذين جعلوا إزدهار مملكة قادراً على إضفاء سحرها، خارج حدودها، على الأدباء القدامى، بل والمسافرين المعاصرين؟

لا يبدو في الواقع انتشار المدن الطرفية مرفقةً بالمعابد والقصور في السودان الأوسط، وخلال القرون الأولى الميلادية، أنها وجدت موازٍ لها على المستوى الجنائزي، من ضمن الاهتمام بآلاف المقابر ومئات الآلاف من الأضرحة التي ترسم الطبيعة الأطول للنيل، على ضفاف الوديان وعلى سفوح الجبال. تجمع محفوف بالمخاطر، كبير جداً من حيث الفترة الزمنية، وكثيراً ما يثبط أعمال التحقيق لعلماء الآثار، فالشك إذن محكوم بالطبيعة المعمارية للبنيات الفوقية الجنائزية المروية، في إقليم لا يكاد يبقى أي هرم خارج مروي. سوى المحافظة على مواد البناء مثل الطوب المحروق تحت خطوط العرض ذات الرطوبة المختلفة والتعرض للأمطار يعتبر دليلاً، لكن لا يفسر العزلة القصوى لهذه المكتشفات، ويتعارض مع عدة تحديثات أجريت على المباني ذات الطوب المحروق خلال الحفريات الحضرية (بمروي والحماداب والحصا والمويس). أكثر من الجدران البسيطة، فإن المرتفعات الأكثر مقاومةً والتي تحتوي على الشكل الهرمي من الأعلى كان يجب أن نجدها بكميات أكبر، ما يقودنا إلى هذا الاستنتاج: على المستوى المعماري، فإن الهرم لم يكن مهيمناً على المشهد الجنائزي المروي.

إذا كانت الرابية أو التل القبري قد استطاع منافسة البناء الهرمي ذو الأصل المصري، فإنه من الصعب جداً تحديد تاريخه. محاولة صقل التاريخ الزمني للتلال القبرية على أساس الشكل يطلعنا وبسرعة على نهاياته، كما أن هذه الهياكل غير المتجانسة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة المعدنية التي نشأت فيها. في معظم الحالات، ما لم تجلب أعمال النهب انبثاق العلامات الزمنية المعروفة للأثاثات الجنائزية، فإنه يجب التعمق في دراسة الضريح، وفي غياب الأدوات، إنشاء سلاسل قياس معمارية (الطول، العمق، إتجاه الحفرة والجسد،...الخ) للحصول على معلومات فيما يخص تحديد الفترة الزمنية. إذن فإن هذا العمل سواء أكان على نطاق متوسط أو كبير، يجعلنا دائماً غائبين بالنسبة لتحديد الفترة المروية.

لم تكن التلال القبرية موضوعاً لبرنامج مكثف للبحث، تسمح جميع البيانات التي نشرت خلال عمليات الكشف المعزول أو عن طريق التنقيب[202] برسم نموذجاً توزيعياً (بصورة غير مكتملة) لممارسة جنائزية معروفة ومنتشرة لدى المرويين.

1. التل القبري في النوبة

تم تحديد التلال السودانية لأول مرة على مخططات المواقع التي زارتها البعثة الروسية في مصر والنوبة بقيادة لبسيوس[203] بين عامي 1842 و1845. ومن ثم لفت انتباه بعض المسافرين والباحثين، إبتداء ب بودج[204] ثم غارستانغ[205] وكروفوت[206] لكن فقط منذ منتصف القرن العشرين الميلادي حيث كانت الروابي موضوعاً للتحقيقات المنتظمة[207].

لم يكن التقليد منذ آلاف السنين في بلاد الساحل، الدفن تحت التلال القبرية موجود بصورة فعلية في بحث نوبي ركز طويلاً على بقايا الآثار المصرية على الضفاف السودانية. التركيز الذي ترك في الظل المعطيات الأثرية المرتبطة بهذا النوع من البناء، مغذياً الفجوة بين معرفتنا التاريخية لمروي وأوجه القصور في معرفة الطبيعة الجنائزية المحيطة بها. باستثناء حفريات التلال القبرية الملكية أو تلك التي تخص النخبة الحاكمة مؤخراً: بلانيا[208]، أوستول[209]، فركة[210]، تنقاسي[211]، العشرة[212]، الحبقي[213] والسروراب[214]، لم تجد الأضرحة المتواضعة الاهتمام لتكون موضوعاً إلا بصورة نادرة. فقط في الآونة الأخيرة وعقب حملة الإنقاذ التي نظمت في إقليم الشلال الرابع، حيث خضع علماء الآثار للتركيز على المقابر ذات التلال القبرية المشتركة منشئين بذلك قواعد منهجية مناسبة يمكن تطبيقها على تحليل السلاسل التلية خلال جميع الفترات المختلطة.

الشكل (46)

---

[202] لونوبل 2008؛ بانر وآخرون 2010.
[203] لبسيوس 1849
[204] بدج 1907.
[205] غارستانغ 1911.
[206] كروفوت 1911.
[207] كروفورد 1953، ص ص 2 – 29؛ شيتيك 1955، ص ص 86 – 92.
[208] إميري وكروان 1938.
[209] نفس المصدر
[210] كروان 1939.
[211] شيني 1954، ص 66 – 85.
[212] مارشال وعبدالرحمن 1953، ص 40-46. علي حكيم 1979، ص ص151 – 155.
[213] لونوبل 1994 أ، نفس المصدر 1994 ب، نفس المصدر 1994 د.
[214] علي حكيم 1979، ص ص 151-155.

معروف على الأقل منذ نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد[215]، فإن التل القبري يتسم به على وجه الخصوص القبر الكرمي، قبل أن يتم اكتشاف مقابر أفراد العائلة الملكية الأوائل والتي تم إنشاؤها في الكرّو (الشكل1)، والتي ستمر بالهرم عند الغزو المصري. التل القبري، منافساً للنموذج الهرمي المستخدم لدى النخب الإدارية والدينية في شمال المملكة، والذي يعبر عن قوتهم، استمر لفترة مقتصراً على سكان المحافظات على هامش هذه الشبكة. لم يعد إليها إلا بعد أن علا شأنه، ومنذ ذلك الوقت تبحث بعض العشائر المنفصلة عن السلطة الملكية عن طريقة انفصالهم التام عن الهرم، الذي يعتبر رمزاً أثرياً للسلطة المركزية القديمة. أصبح رسوخ النموذج التلي في التقاليد الجنائزية النوبية إذن قوياً إلى درجة أن المسيحية لن تتمكن من فرض نموذجها رباعي الزوايا إلا تدريجياً.

بعيداً عن الجانب المعماري، فإن التل القبري يجلب الفائدة بحسب موقعه، على عكس الهرم، ينتشر في الوقت نفسه على ضفتي النيل وداخل التربة، في بيوضة والبطانة. هل يجب مع هذا كله توقع أن يكون (من حيث الأماكن) اختلاف بين أضرحة المزارعين المبنية على المنحدرات النهرية، وبين أضرحة القسسيسين شبه الرحل المرافقة لقطعانهم في المساحات الموجودة بين الأودية؟ ليس هنالك تأكيداً، حتى أن التركيبة الداخلية للسكان المرويين ما زال من الصعب التعرف عليها. يشير دفن الشخصيات الهامة على طول الوديان، كما في النقعة (الشكل46) من جهة أخرى إلى أن بعض النخب استخدمت نموذج التل القبري.

1.1 المواد الخام

يظل التعرف على الشكل التل صعباً نسبة لأنه (وبحسب الطبيعة) يعيد ترتيب مساحة معدنية لفترة من الوقت تساعد في تجديد المشهد على مر القرون. وحدها أوجه الانتظام في الطول أو في تركيز المباني التي غالباً ما تسمح بالاكتشاف الأول.

الشكل (47)

لم تجلب المواد المستخدمة في بناء التلال القبرية من مسافات بعيدة وإنما في مكان المقبرة نفسها. الطمي والرمل والحصى والصخور الحجرية التي تدخل في دمج مجموعات عديدة من البناء، بالمقابل ليست كافية لتحديد الفترة الزمنية. يعتمد تأسيس خاصية إقليمية أو حتى محلية[216] للبناءات بصورة

---

[215] تم اكتشاف مدفن تلي في العصر الحديث بإقليم البطانة (لونوبل 1987، ص 236).

[216] على سبيل المثال، في وادي دوشيم، حاملةً كميات كبيرة من Hudi Chert, فإنّ المدافن التلية تتكون حصرياً من هذه المواد. أيضاً على جبل الكريبة والتي تنتمي إلى حديد السطح المقوي بشندي، فالمنحدرات مغطاة بتلال من الحجر الرملي الذي كساه السواد بسبب الأكسدة.

مباشرة على البيئة الطبيعية ولا يستند إلى قاعدة ثقافية لتعريف القاعدة. وهكذا تستخدم المدافن المنشأة داخل التربة وقريبة من الجبال بصورة مكثفة الحجارة الحديدية (الشكل 47)، بينما تلك المنشأة على المنحدرات النيلية فهي بصورة عامة مبنية من الحصى والرمال السطحية (الشكل 48). بالقرب من النتوءات الصخرية، فيفضل استخدام الحجر الجاف بقياس نسبة الحبيبات التي عادة ما تكون غير متمايزة.

الشكل (48)

نجد في بعض الأراضي ذات الطبقة السطحية الهشة وكذا طبقة داخلية طينية، أن الهيكل القبري للمقابر الخاصة غالباً ما يتم تخفيضه إلى أبسط صوره. في غياب الحفر حول القبر إشارة واضحة إلى أن السطح فقط هو ما يتم كشطه، مما يحد بصورة واسعة عملية التطور بالنسبة للتل ويؤدي إلى انهياره ومن ثم اختفاءه. طبيعة المواد المستخدمة، والتي تالشكل مجموعات متجانسة على السطح، سهلت كثيراً عملية إستغلال البنية الفوقية. أينما حلت التنمية الحضرية، فإن التلال القبرية تمثل مصدراً مفيداً للاستغلال، بما أن الجرافات تقوم بعمل الردميات المتجانسة دون الحاجة إلى عمليات حفر. تؤثر هذه التقلبات لاحقاً على قراءتنا الخرائطية حول مناطق القبور. ينتج عن ذلك صورة مشوهة عن المشهد الأثري بسبب الحفاظ الأمثل للحجارة مقارنة مع وحدات الأثاث على الأسطح الطينية. أيضاً في الإقليم الواقع بين الخرطوم وأبو حمد، حيث النسيج القبري غير منقطع على طول الضفة الغربية، فإن التطور الحديث للسكان وللثقافات أثر سلباً على استمرار المجال القبري على الضفة الشرقية بتقسم ومن ثم عزل مواقعها. لكن هذه التقلبات ليست هي العقبة الوحيدة أمام معرفة الهياكل القبرية؛ فالتنوع الشديد للأشكال أدى إلى صعوبة عملية التقسيم الزمني المنتظم.

2.1 هندسة متعددة الألوان

باستثناء الهرم النبتي المروي، يحتوي القبر النوبي بصورة عامة على التل القبري. وبوضعه في إطار جغرافي واسع نلاحظ من جهة أخرى أنه ومنذ آلاف السنين تعبيراً للساحل الأفريقي[217] بأكمله. نجد خلال العصور القديمة المتأخرة، أن المدافن التلية خارج الحدود تتم بإشراف مباشر من قبل المرويين، وذلك على حدود الصحراء الشرقية وتلال البحر الأحمر[218].

---

[217] بالمر 1922، ص 225 – 233؛ فيكتور وبيكر 1980؛ ماوني 1993، ص 79 -101.

[218] على سبيل المثال التل M-B1 منديلو، المعاصر للمروية اللاحقة (ماجد وآخرون 1995، ص 172). بالنسبة للفترات اللاحقة، أنظر كاستغليوني وNov,k. 1997، ص 163 – 167).

لدى بعض سكان النوبة القدامى، كالمجموعة ج على سبيل المثال، نجد أن البنية الجنائزية العلوية قد شرّعت بسرعة القوانين التي تحكم بناءها، بحيث يتم تمديد حدودها من خلال مراقبة الهياكل الجنائزية. على عكس ما هو عليه الحال بالنسبة لمملكة كرمة[219] الحديثة أو أي من خلفائها، والتي تعتبر هندستها المعمارية الجنائزية الملكية أو تلك التي تخص النخب معروفة لنا، فإن هنالك بعض الصعوبات في التعرف على المدافن الجماعية. تميل البقايا القبرية إلى التشابه في ما بينها، في مشهد يحمل ندوباً منذ آلاف السنين من التواجد تحت التل القبري.

قبيل الحلقة المروية، فقد قدمت الحقبة النبتية العديد من المدافن تحت ركام الأحجار، ابتداء من شمال المملكة وحتى إقليم الشلال الرابع. توجد مع المتوفى أحياناً زمزمية الحج مما يسهل عملية التأريخ الزمني.

نركز إذن على النتوءات الصخرية كمواقع للدفن، فالجسد يوجد مستلقي على الأرض الطبيعية دون أي تجويف على باطنها. في حالات أندر، هنالك قبور نبتية تحت التلال القبرية تم التعرف عليها في إقليم الكربة والكدادة جنوب مقبرة مروية وما بعد المروية[220]. توجد على هيئة حفر بسيطة مغطاة بكتل من الحصى المتماسك مكوناً بذلك تلاً قبرياً، ولديها عدد قليل من الأثاثات الأثرية أو مجموعة مميزة من الحلي، كما أن الجسم في وضع مقرفص وفق إتجاهات متغيرة.

في الواقع أثبتت الأنواع الأولى لدينا متانة النماذج القبرية على مر العصور[221]. أثبت مثال جبل مقبور[222] أيضاً أن أربعةً من التلال القبرية تنتمي إلى نفس المجموعة، تتوافق مع عمليات الدفن خلال العهد الحديث[223]، والعصور القديمة المتأخرة والعصور الوسطى. مع بعض الاستثناءات، القبة القبرية[224] على سبيل المثال (من الأمبراطورية الجديدة أو الحقبة النبتية) أو المربع القبري (المسيحي) يظهر إرتباطاتهم بفترة معينة ونوع معين من التجمع الثقافي. بغض النظر عن هذه الحالات النادرة، فإن نموذج التل القبري متغير، لكي لا نقل عكس ذلك. النموذج مضطر لقبول العديد من المصطلحات الصرفية تحت مسمى مخروط القبر إلى أن يتم تقييده بواسطة العديد من الاكتشافات. لذلك فمن الملائم بالنسبة للفترة المروية، إعطاء تعريفاً يشمل كل الأنواع التي تم اكتشافها على النحو التالي: التل القبري في جميع حالاته إما دائرياً أو بيضاوياً، يتم بناؤه من مواد معدنية خام أو من الطوب للدلالة على موقع

---

[219] غراسيا 1986.
[220] جوس 1984.
[221] ويلسبي 2003 أ، ص 122؛ بانر وبوركوسكي 2005 ب، الشكل 36.
[222] لونوبل 1987 ب.
[223] شهادة أخرى للقبر التلي تسبق الفترة المروية عرفها غباتي بجبل أبو شيفة (مالينسون 1994، ص 20).
[224] بعض الأمثلة للقبة القبرية تحتوي على بقايا الهياكل العظمية المروية، لكننها في الواقع تم استغلالها مرة أخرى في ذلك الوقت (بانر وآخرون 2010)، وتبين ظاهرة فريدة على الوادي بأكمله.

دفن. ثمة هضبة مستديرة مستخرجة من حفرة الدفن، أو حجر بسيط دائري مع أو بدون ترسبات من الداخل، أو أكثر تفصيلاً عبارة عن تل حجري، تشارك جميع هذه العناصر في تغطية القبر عبر هندسة معمارية تعيد تنظيم الطبيعة، من خلال إزالة العلامة بفضل هيكل دائري للإلهام المقدس. على غرار السلاسل الساحلية، فقد عرف القبر المروي اختلافات متعددة في الشكل والمعدات والحجم، يتراوح قطرها من متر واحد إلى عدة أمتار. مثال لنموذج متوسط مقتبس من اكتشافات الكدادة[225] يعطي النسب التالية: مساحة علوية حوالي عشرة أمتار بارتفاع حوالي ثلاثة أمتار، لم يبق منها اليوم سوى متراً ونصف، أي انخفاض إلى نصف الارتفاع. يستغل التل الإصطناعي أحياناً تغيرات الأرض الطبوغرافية. أيضا، نجد في حالة وجود ربوة طبيعية، تركيزاً أكبر للتل في الجزء العلوي من الكوم.

يعني التباين في الهياكل الجنائزية للتل القبري، في الحجم أو المواد أو تقنية الحفر أو إغلاق المدفن، للكثير من المؤلفين طابعاً موحداً للطقوس الجنائزية (ادامس 1977، 426). يبدو أن الحكم كان حذراً من حيث الفوارق، إذ أن المقابر الخاصة متنوعةً كما الحال في ظهورها، تحجب البنية التحتية وطقوس الدفن المتجانسة نسبياً.

يولد الاهتمام الذي تحظى به المباني تعظيماً للملك أو للنخب البارزة والذين لا يفتقرون الى موارد، إنطباعاً عن الفارق الزمني للطقوس الجنائزية. رغم ذلك، يشير كل شيء في مملكة مروي، إلى أن اعتماد البنية الفوقية، هرمية كانت أم تلية، غنية أو فقيرة، لم يعترض القواسم المشتركة في العقيدة الممارسة: تطهير الميت، حماية الجسد، طقوس المرافقة ودفن الأدوات الطقوسية.

1.2.1 حماية الجسد ودفن الأموات

بما أن المراسم الجنائزية تدور حول الجسد، وذلك بغرض السمو بروح الميت لدرجة الخلود بعد الموت. تحويل الجسد إلى نطاق مقدس، فإن الطقوس تتوق لإعادة إحياء كل شيء، لتوافق بذلك أهمية كبرى للبقاء ما بعد الموت، والتي تتمثل في بقايا الجثة. تمثل حمايتها، بل أيضاً عزلها وإخفاءها جزءاً من عملية التجديد والتحول.

مع ذلك، فإن أصل التل يعود في قليل من الأحيان إلى اعتبارات دينية معدّة. كانت الحماية المباشرة للبنية المغطية للجسد بالحجارة أو مجموعة كافية من الحصى هي الوسيلة الوحيدة الفعالة لتجنب الكلاب بأنواعها أوالضباع من أن تنبش القبور. يعزز المدفن التلي، كما الهرم، بالمثل الإشارة الأسرية داخل المقبرة كما تسمح باستخدامها لعدد من عمليات الدفن. وهذه لا ترد إلا نادراً للإخلال بالقبر الأصلي وتفضيل إنشاء حفر جديدة على وجه الخصوص بعمق أقل في المساحات الفارغة على

[225] جوس ولونوبل 1985، ص 67-92.

الأرض المغطاة بواسطة التل. يعيد التفكك السهل للهيكل التلي هذه الممارسة الطبيعية، ويفرض على باحثي الآثار التنقيب عن كامل المدفن التلي حتى لا يسقط أياً من القبور.

2.2.1 التجمعات والطوائف

نجد أن بعض القبور داخل مجالات الدفن النوبية، تظهر اختلافات ومكانة المتوفى الاجتماعية، سواء بواسطة الطول أم المكان المخصص المرتفع أو البعيد. وإن كان يبدو أن العبادة الملكية في القرون الأولى الميلادية تم نقلها ومن ثم تطويرها في القطاع الخاص على أساس مشترك لجميع الأفراد، إلا أن هذا لم يقف أمام عملية التفرقة الإجتماعية التي تطبق في المراسم الجنائزية وفي البناءات القبرية. كما أنه من الممكن أيضاً في بعض مجتمعات البطانة التي تستعمل الطرق التقليدية للدفن تحت المدافن التلية، أن يجد كبار النخب امتيازات وذلك بالاتحاق بالمقبرة الغربية لمروي والتي ينتشر فيها الهرم.

ما زال لدى المقابر التلية الكبيرة الشكلاً من أشكال التدرج بين أغنى المقابر والمقابر شائعة الإنتشار. ولكن بالنسبة لجميع المقابر ذات الأحجام المتواضعة، يتلاشى هذا الفرق ليدع نوعاً من التجانس. ويمكن تفسير ذلك باعتباره إما بالمساواة الاجتماعية، أي أن جميع الأفراد لديهم نفس المرتبة الإجتماعية، أو إشارة إلى اختيار حكيم مخصصاً أيضاً للمصلحة الطائفية. في حالة المقابر المجاورة للمحاجر، على سبيل المثال حول المصورات الصفرة أو جبل مقبور (بلا شك مستخدم في معابد عواليب وأبو إرتيلا)، فمن الممكن أن تأوي القبور حصرياً جثث العمال الذين يعملون في استخراج وقطع الأحجار. يعني القرب بين مكان العيش وممارسة الأنشطة الحياتية وموقع الدفن إذن الشكلاً من أشكال الهيمنة التي تحدد مجموعة سكانية محددة. بينما تختفي المحاجر على سفوح الجبال، نجد أن المقابر تحتل المساحات الظاهرة من السهل، كما يظهر أن تسجيل المقابر في المشهد النوبي كان يحمل رسالة إلى المجتمعات التي تعيش حولها.

تتناقض المجموعات المعينة لبعض أصحاب المهن والمجموعات العرقية أو الدينية مع فكرة أن السكان المستقرين تم دفنهم في مقابر كبيرة بينما المجموعات شبه المتنقلة دفنت في مقابر صغيرة. يكفي الغياب الواضح للسكان بالقرب من المقابر الصغيرة للقول بأن السكان غير مستقرين.

يبرهن علم الآثار دوماً أنه في ظل غياب الحفريات، فإن اكتشاف البقايا المتماثلة في الأقاليم ذات الأمطار الغزيرة يظل عشوائياً وصعباً للغاية. تعكس شبكات المنحدرات التي تتخللها مدافن تلية أيضاً صورة عتيقة وتقويض للنشاط البشري الحقيقي في الماضي.

تجمع بعض الفئات الاجتماعية داخل المقابر لا يمكن أن يتجاوز إطارات محددة كما يمكن تطبيقها على فئات أكبر مثل فئات مربيي الماشية والمزارعين. يسمح مثال البطانة وشبكة خزاناتها وآبارها، والتي تعزز الأنشطة الزراعية والاستقرار السكاني على طول الوديان[226] في الحقيقة بامتداح النموذج المختلط، الرعوي والزراعي، في المجتمع المروي[227]. تقدم الاكتشافات التي تمت في الكدادة[228] والجيلي[229] أدلة تثبت هذا التمازج.

2. جغرافيا المدافن التلية

جعل تكيف الهياكل التلية مع بيئتها التعرف الثقافي على القبور النوبية صعباً، كما دفع بباحثي الآثار لإعطاء أهمية خاصة للعناصر على السطح. يعتمد الإسناد الثقافي والزمني للحقول التلية السودانية إلى حد كبير على التشخيص الذي لم يتم تأكيده بواسطة الحفريات. استناداً إلى هذه المعلومات، فمن الممكن وضع خريطة المناطق والأقاليم حيث المدافن التلية المروية (خريطة رقم 3)، والتأكد من إختفاءها (كلياً؟) في الجزء الشمالي من المملكة. تتمركز الحدود الجغرافية بين استخدام الهرم والمدفن التلي بين الكوة وإقليم جبل البركل، حلقة تتجنبها على ما يبدو الآثار المشتركة التي تربط العاصمة الدينية مع الحدود الشمالية للنوبة. مع ذلك، فالاستثناءات من جهتي الحدود موجودة.

1.2 دفن انتقالي في شمال المملكة؟

باستثناء سمنة جنوباً[230] وأرمينا غرباً[231]، ومن خلال تساؤلات سميث[232]، فإن الاكتشافات في النوبة السفلى لم تؤكد استخدام المرويين للمدافن التلية[233]. لكن المجموعات التلية التي تغطي بعض القبور كانت محط التحقيقات في هذا الإقليم، كما كان ينسب بعض باحثي الآثار هذه النماذج بصورة منتظمة لحقبة ما بعد المروية، بلانيّة أو المجموعة ج. تصنيف تاريخي ربما غير دقيق[234]، كما توضح اكتشافات إقليم الشلال الرابع والمقابر الانتقالية التي يحتويها.

---

[226] عبدالمجيد 1989.
[227] كازانوي 1983؛ برادلي 1992؛ علي حكيم 1999، ص 291 – 311.
[228] جوس ولونوبل 1984 أ.
[229] بشير التحليل الكيميائي للعظام البشرية في المقابر المروية القديمة إلى أن السكان كانوا يحصلون على البروتينات الحيوانية بانتظام، بالإضافة إلى النظام الغذائي القائم على المنتجات الزراعية (كانيفا وآخرون 1988، ص 208).
[230] فيركوتيه 1966، ص 125 – 164.
[231] فولر 1999، ص 203 – 217.
[232] هو الذي يعين بالفعل بعض الحجارة الصخرية في القبور (سميث 1962).
[233] جوس 1990، ص 40.
[234] نجد في الدراسات التي تم إجراؤها تاريخ زمني للإنتقال نحو ما بعد المروية مقسم إلى جزئين: كلابشا (330-380م) وقسطل (370 -420 م)، أنظر فولر (1999).

من المحتمل أنه ومنذ الاضمحلال السياسي الذي أدى إلى نهاية السلطة المركزية في مروي، ظهر القبر التلي مرة أخرى لدى النخب، حيث تمت إجازته بعد ذلك في المقابر الملكية للحكام الجدد لبلانيا وكوستول. تبين حالة أرمينا الغربية من جهة أخرى جميع أوجه السكان المرويين الذين يستعملون الطوب المحروق للمباني الدائرية حول الأهرام الصغيرة (الهُريمات أو التلال الحجرية) الجنائزية[235]. ربما يوجد تحول معماري بين الهرم والرجوع إلى المدفن التلي؟ هنالك فقط بعض المواقع جنوب بطن الحجر يمكنها تأكيد استخدام المدافن التلية على نطاق واسع في الفترة المروية اللاحقة.

الشكل (49)

في العهد المروي القديم، من الممكن أن يكون بناءً هجين قد برز على هيئة الهرم، ولديه حلقة دائرية من الطوب المحروق في مركزه توحي بهيئة المدفن التلي (الوحدة الثانية 4.2.2). على أي حال هذا مشابه لما تم اكتشافه في صادنقا؛ قبر سليم تغطيه حلقة مبنية من الطوب (الشكل 49)، حيث يمكن أن نطلق عليه إسم المدفن التلي، يرجع تاريخه إلى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد. ومع ذلك، وبالرغم من هذه الأمثلة، فمن الملائم أن نرى ممارسة المدافن التلية استثناءً في الجزء الشمالي من المملكة.

يستند الانقطاع عن النموذج الهرمي، بسرعة وعلى نطاق واسع، إلى موجة من التغيرات التي تؤثر على المجتمع المروي خارج نطاق العادات الجنائزية، يعتبر الانتقال من العهد المروي إلى ما بعد المروي، في شمال السودان كما في السودان الأوسط ، مسألة تحول. الشيء الذي يتجسد تماماً في أرمينا غرباً، حيث نرى سلسلةً من الأهرام المروية والمدافن التلية للفترة بعد المروية داخل المقبرة الواحدة، موقع السكان المجاور يشير أيضاً إلى استمرارية الإقامة حتى الفترة المسيحية على أقل تقدير. تبرهن إعادة استخدام العناصر الهندسية المروية في المدافن التلية جيداً التحول الزمني، ولكن في غياب الأثاث من نوع المجموعة س، ليس هناك ما يبرهن أننا قد خرجنا من العهد المروي. تصب أوجه الشبه في أماكن الدفن وفي التجويف الذي يوضع فيه الميت في اتجاه استبدال النخب بمجموعة جديدة من الأشخاص تستوعب بصورة جزئية التقاليد الجنائزية الكوشية.

هذه البقايا الأثرية من "فترة ما بعد الهرم المروي"[236] في الجزء الشمالي ليست الشاهد الوحيد لهذا الانتقال، بل هنالك عناصر أخرى ساعدت في التحول المتقدم للمجتمع المروي كانت واضحة في الأثاث الجنائزي. الرجوع إلى تفسير بعض الوثائق المنشورة من جبل عدّا تبين ضرورة إعادة النظر

---

[235] سيمبسون 1967 أ، ص 1 مكرر.

[236] مصطلح تم اختراعه بواسطة باتريس ليونوبل يعني به الفترة المروية اللاحقة التي إختفى فيها البناء الهرمي فوق المدافن النوبية.

في المواد الناتجة عن حفريات الكشف القديمة. ففي المقابر المروية على الموقع (مقبرة رقم 3، والتي تضم أربعمائة قبراً على الأقل)، تعود جميع الأثاثات التي تم استخراجها من حفرة الدفن إلى الفترة ما بعد المروية، بينما نموذج الأضرحة مشابه تماماً للنماذج في الفترة المروية[237]. وفقاً لميليه، جميع الأضرحة تم نهبها وإفراغها ومن ثم استخدامها مرة أخرى في الفترة ما بعد المروية. لكن بعض العناصر لا تعزز هذا الإدلاء، ابتداءً من عملية التنظيف الكامل الذي تم إجراؤه ووجود مقبرة تلّية كبيرة تعود للفترة ما بعد المروية متجاورة مع الجهة الجنوبية للموقع. لماذا إفراغ وإخفاء أثاث المئات من الأضرحة، وبمجرد نفادها نبدأ بحفره من جديد؟ أين ذهبت إذن المواد المعنية؟ لم يتم العثور على أي مستودع للنفايات، فمن الصعب أن نتخيل أن السكان "مجموعة س" حملوا معهم آلاف القطع عديمة الفائدة أو أغراض تدفن مع الموتى بعيداً عن المقبرة بحجة تنظيف الأماكن. الفرضية الزمنية الأرجح كما يلي: هنالك نخبة جديدة مروية ذات أصول خارجية تدفن موتاها بنفس المقبرة، مع أثاثات مختلفة جزئياً ولكنها في الأصل ذات طابع جنائزي كوشي. وجد المكتشفون إذن المرحلة الأخيرة من العمليات على المقابر والتي تم تطويرها جنوباً على هيئة حقول مقابر تلّية، ممارسة إعادة الدفن أصبحت أقل شيوعاً. بالإضافة إلى أن جميع المقابر لم يتم نهبها كما يفترض ميليه، فبعض المقابر حافظت على الأثاث الجنائزي المروي الذي تم تفسيره بصورة خاطئة. فعلى سبيل المثال حالة حلقات الرماة الذين ليس لديهم أي تالشكل في وقت لاحق، يد خشبية[238] تنتمي بلا شك إلى ذراع تحمل المبخرة، مركبة من الخشب والبرونز المعروف في الكتابات المنقوشة لمعابد الملكية في جبل البركل[239]، أو من الممكن أيضاً أن تكون مرصعةً بالعاج[240] الذي يكون قطعه على هيئة صورة ظلية[241]. وأخيراً، أثاث الهرم 2 يحتوي على علبة الكحل على هيئة طير جارح[242]، حيث تشابه قاعدته الديكورية قاعدة الصدرية المزخرفة التي تحمل الطابع المروي، تم العثور عليها في حرم معبد آمون بالحصا[243].

تدل كل هذه الأشياء على وجود مرحلة انتقالية شهدت أولاً تحويل النخب من بعض المراكز الكبيرة من النوبة السفلى، ولم يكن لديها حينئذٍ تأثير كبير على مستوى التركيبة السكانية. لا يعني المزيج الناتج إذن التفكك السريع للالتقاء الثقافي والديني الكوشي الذي تم تطويره خلال ما يقارب الثمانية قرون في المملكة.

---

[237] ميليه 1963، ص 147 – 165، نفس المصدر 1967، ص ص 123-126.
[238] ميليه 1963، الشكل 15.
[239] شابمان ودونهام 1952، ص 13.
[240] ميليه 1963، الشكل 8.
[241] مشابه للمروية اللاحقة (فرانسيس 2008).
[242] ميليه 1963، الشكل 12.
[243] روندو 2010، ص 237، الشكل 311.

2.2 الاستغلال الهامشي للشلال الرابع

في منتصف المسافة بين النوبة السفلى وإقليم الكربة الذي يأوي العاصمة، المنطقة الممتدة من الشلال الرابع وحتى جزيرة مقرات[244]، لا تمثل مع ذلك منتصف المسار بين هاتين المنطقتين. بعيداً عن الطرق التي تربط مروي بجبل البركل، سيكون من عدم الحكمة البحث عن سمة مروية تعزز الثقافة المادية المماثلة لتلك الموجودة في الشمال أو السودان الأوسط، يبدو أن كثيراً من الخزف المزين قد اقتصر على "مدن" المملكة وتوابعها الإدارية والتجارية. بالرغم من حضورها الجيد في عهد كرمة، فقد كانت مواقع الدفن، مقارنة بالسكان، نادرة في الفترة المروية. تطيل القبور من عمر تقاليد المدافن التلية القديمة، وإن كانت في أغلب الأحيان بدائية الشكل.

معظمها بارزة بفضل المسوحات الأخيرة التي تمت إثر بناء السد في الحمداب (مشروع سد مروي)، تمتاز المقابر المروية بمواقعها المنخفضة (على عكس الفترات السابقة)، على الرغم من امتداد المشهد الصخري على طول ضفاف النيل، مخفياً عدد من المرتفعات المحمية طبيعياً ولكنها غير صالحة لإنشاء القرى أو الحقول. فليس من النادر إذن أن نجد المقابر المروية أسفل الجبال، بل حتى في الأودية الرملية[245]. تشير هذه الهجرة في اتجاه الأراضي السفلى بلا شك إلى التغير المهم في النظام الهيدروغرافي في هذا المجال خلال العصر الحجري اللاحق.

تمتاز المدافن التلّية في منطقة الشلال الرابع أيضاً بأنها تغطي الفترة الزمنية منذ العهد المروي وحتى العهد المروي اللاحق[246]. كما في أماكن أخرى، فإنها تحوي العديد من الاختلافات الشكلية، ابتداءً من الصخور الضخمة البسيطة وحتى التلال المركبة ذات الأبعاد الكبيرة.

في أحد الأقاليم على هامش مراكز المملكة العصبية الاقتصادية أو الدينية، والمسارات التي تربط بينها، فإن القبر المروي تطور في بيئة تميل إلى إدراج التأثيرات الجديدة. الفقر[247] وقلة الكمية في الأثاث المدفون مع الموتى، في حين أن العديد من القطع المتراكمة على السطح لم يتم نهبها[248]ا، تدل على وجود مستودعات جنائزية تجرى خارج القبر، وليس في لحظة الدفن.

---

[244] ناصر 2006، نفس المصدر 2008.
[245] الطيب وكولوسوسكا 2005، ص 62، الشكل 17.
[246] بانر وآخرون 2010.
[247] يبدو أن نهب القبور المروية في الإقليم أقل كثافة من باقي أقاليم المملكة، إذ يستهدف إلى 50 % من المدافن (بانر وآخرون 2010).
[248] يوجد خزف مشترك بدون بناء مع نماذج ذات زخرفة رائعة. الخزف المنقوش يعتبر استثنائياً. نقص المواد الخام في المنطقة مثل الكولنيت يمكن أن يفسر غياب الخزف المروي، لكن ليس عجزاً عاماً في المنتجات المعروضة.

وفقاً لوولف، فإنّ الجزء المهم في المقابر المعزولة، التي لا تنتمي إلى موقع سكني معين، تشير إلى أن سكان هذه المنطقة غير مستقرين[249]، في ظل دراسة برادلي في شمال كردفان، والتي، رغم التنقلات، إلا أنها تدفن موتاها في مقابر عائلية موحدة[250]. يتبين لنا من ذلك أن الممارسة واسعة الانتشار في المملكة للمدافن الجماعية تعد ظاهرة شبه استثنائية.

3.2 بيوضة

إقليم بيوضة، المحاط بمنحنى النيل مالشكلاً انتفاخاً بين الخرطوم وقنتّي، عبارة عن منطقة صحراوية، وكثيرة الرمل، إذ أن المرويين كانوا دائماً يربطون عاصمتهم بمناطق العبادة للنوبة العليا، أو بتوفير المنتجات الإفريقية لدعم التبادل مع القوى المتوسطية والمصرية المجاورة.

اليوم، مكان بسيط للمرور يأوي السكان، غالباً شبه رحّل، من الجزر الصغيرة، تعيد إلينا البقايا الأثرية القديمة، على العكس، صورة منطقة ذات كثافة سكانية عالية، ربما مستقرين على طول الأودية. عدد المقابر فيها كبير، وعدد الأضرحة التي تحتويها هذه المقابر يدحض أي تفسير ينص على أن الدفن يقتصر فقط على السكان الرحل.

صحراء بيوضة من أكبر المناطق التي تم إهمالها من قبل الكشوفات الأثرية المرتبطة بالنوبة. حتى وقت قريب، فقط بعض الإبل القديمة[251] وعمليات مسح بغرض إنشاء طرق[252]، إضافة إلى اكتشاف عن طريق الصدفة[253]، هي ما قادتنا للتعرف على بعض المعلومات في ما يخص الجنائزيات في هذا الإقليم حيث المدافن التلّية تغطي المكان. منذ العام 2009، تساعد المسوحات المنتظمة لوادي أبودوم من الشمال إلى الجنوب[254]، في توضيح هذه الحالة ووضع العديد من المواقع المعروفة، التي يمكن أن تضاف إليها اكتشافات المقابر الجديدة.

1.3.2 المسارات من مروي إلى نبتة

يبدو أن قلب إقليم بيوضة لم ينتج عنه أي شاهد أثري (خطأ في البحث؟) بين نهاية عصور ما قبل التاريخ وحتى بداية العهد الكوشي، حيث تظهر أخيراً المنازل الجديدة (خريطة رقم 4). يبدو أن المواقع تكاثرت في الفترات اللاحقة، إذ أصبح السكان الرحل أو المقيمين بلا شك أكثر من أولئك الذين

---

[249] وولف ونوتونيك 2005 أ، ص 189.
[250] برادلي 1992.
[251] كراوفورد 1953؛ شيتيك 1955.
[252] مالنسون 1997.
[253] كندال 2001، نفس المصدر 2006.
[254] لوهسر 2012؛ لوهواسير وكاربيرغ 2012.

عاشوا في العصور الحديثة. في هذه المساحة التي تفصل إقليم مروي عن نبتة، فالمسارات التي تم إنشاؤها منذ العصر الحجري ما زالت تحتوي على بقايا أثرية، سواء أكان من السكان أم المقابر.

من السهل أن نكتشف عن طريق جمل أو سيارة، لكن الصعب اختبار الفترة الزمنية، تغذي المقابر المدعومة بأسطح حجرية إلى حد كبير تقارير البحوث الأثرية الخاصة بالإقليم. تحتوي على بقايا تنقسم في الأساس إلى نوعين: المدافن التلية والقبور المربعة. المدافن التلية عادةً ما تعزى للفترة ما بعد المروية، لكن في ظل غياب الحفريات، فقد يكون هنالك جزء بين الفترتين ينتمي إلى الفترة المروية، كما توضح الاكتشافات التي أجريت على طول الشلال الرابع، عليه فإن نسبة نموذج المدافن التلية للفترة بعد المروية يعتبر خطأ.

ابتداءً من رافد وادي أبو دوم شمالاً وحتى مروي جنوباً، كثيرة هي المواقع السكنية والمقابر التلية القديمة التي لم تحدد فترتها الزمنية. على الضفة الجنوبية لوادي أبو دوم، قبالة موقع أم رويم 1، ثلاثة مقابر تلية كبيرة يمكن أن تكون متصلة بهذه التركيبة الغامضة إذ أن C14 يعطينا مرحلة من مراحل البناء بين 240 و 330 من العام الميلادي[255]. بينما لم تعرف المعطيات الزمنية بعد بالنسبة لأم رويم 2 وكويب وأم خافور، نلاحظ في قلب بيوضة التجمعات المهمة للأضرحة في جنوب التلال (بالشكل أساسي في بير فيكي وأبو حلفا وجكدول وفورا)، وفي المنطقة الممتدة من أبو تولين وحتى المتمة. ما تتميز به جكدول وفورا هي وجود أحواض في الصخور التي ما زالت حتى اليوم أماكن لالتقاء الناس والقطعان التي تتنقل في الإقليم. لا شك في استخدامها في العصور القديمة، بما أن بفورا قلعةً يقال أنها مروية[256]، تحكم الدخول إليها. فهي مرتبطةً بالمقبرة التلية التي تبعد حوالي خمسين متراً، تمثل نظيراً لقلعة مثل قلعة أبوحمد على وادي الملك، الذي يفترض أنه مقر "الحاميات العسكرية" المسؤولة عن ضمان سلامة بعض قنوات الإتصال في العهد النبتي[257].

في شرق بيوضة كان هناك خياراً للمسافرين من فورا أو أبوعشر في اتجاه البطانة ومروي، وذلك بفضل أحد الآثار الموجودة شمالاً، أبعد من سابقتها، والتي كان من المفترض أن تحجب الرافد الحالي الموجود بين النيل وعطبرة. تتميز بوجود مقبرتين تلّيتين كبيرتين، توجد الأولى في منتصف المسافة، والثانية قبل النهر بقليل.

الشكل (50)

---

[255] لوهسر 2012، ص 114.

[256] تم تحديد فترتها الزمنية بفضل الخزف الذي تم اكتشافه في الفناء (كروفورد 1953، ص 23).

[257] أربعة تأريخات زمنية ل ^{14}C تؤكد عملية بين القرنين الثامن والرابع ق.م.(جيس وكوبر 2006).

يبين اكتشاف مؤسسة مروية قديمة بالمراغ[258] أن قناة اتصال تتبع تشعبات وادي المقدّم كانت أيضاً مصطنعة. تعداد العديد من المقابر التلّية على طول الوادي (الشكل 50) وتبادل النبلاء[259] ووجود شبكة آبار قديمة، كل هذا يدل مرة أخرى على أن مشهد الصحراء كان أقل معاداةً من اليوم. تؤكد عملية الاستكشاف على مسار الطريق الرابط بين الخرطوم وقنتّي من جهة أخرى أن لدى وادي المقدّم شبكة هائلة من الآبار القديمة، تتخللها المواقع السكنية خلال فترة تاريخية، عدد هذه المواقع لم يتوقف عن التزايد خلال الفترة ما بعد المروية[260]. هنالك مقبرتين تلّيتين مرويتين تم إدراجهما ضمن اللائحة، على مستوي نقاط التجديد (BM)Bench Mark 61 و 90، والتي تعلّم الطريق المسفلت الذي يعبر بيوضة. في ظل غياب الاكتشافات، فإنّ تحديد وتاريخ الفترات الزمنية يقوم على أساس بقايا الفخار المنتشره على السطح، واكتشافات أخرى للأعمال الفنّية مثل حلقات الرماة المتجزأة على صورة مشابهة لنظيراتها في الفترة المروية[261].

2.3.2 ضفاف مجهولة

بعدد أكبر من المساحات الممتدة في بيوضة، ترسم المقابر التلّيّة نسيجاً شبه متصل على طول الضفة الغربية للنيل بين أمدرمان وإقليم أبو حمد. يقول كروفورد الذي افترض هذه الحدود بين عطبرة وأبو حمد، إنه وجد فيها تركيزاً غير منقطع وكثيف ومتجانس[262] من المقابر. قام كروفور بإعداد أول قائمة تحدد المقابر الأكثر أهمية من الجنوب إلى الشمال: شمال جبل نخرو، غرب الباوقة، قبالة جزيرة أرتول، قبالة مرّة والزويرة. حسب كروفورد أيضاً، هذه المقابر المروية تخص سكاناً ينتمون إلى النخبة التي اختارت النموذج الملكي الهرمي. يبدو أن موقع القبور على الضفة الغربية يفسر بغياب السكان الأصليين، والطبيعة الصخرية القاسية لأرض الضفة الشرقية بإقليم الشلال الخامس. من الملائم أن يضاف إلى هذه القائمة مقابر أبو حراز وإسلانج وكالي شمال وقوز برّة وباودة والنوفلاب وأردي والحريزاب وكبري أمدرمان[263]. عمليتي مساحة كشفية تكمل هذا الحصر، الأولى في المناطق المحيطة بالشلال الخامس[264]، والثانية على الضفتين الشرقية والغربية في إقليم ضانقيل[265].

---

[258] (كندال 2001).
[259] تشير طبيعة البقايا الأثرية التي تم العثور عليها في المراغ إلى وجود بناءات مخصصة لاستقبال العائلة الملكية أثناء تنقلها (كندال 2001).
[260] مالنسون 1997.
[261] سميث 2003، ص 131 – 156.
[262] كروفورد 1953، ص 11.
[263] إدوارد 1989.
[264] الأمين وإدوارد 2000.
[265] محمد أحمد وأندرسون 2000.

سلّط مشروع التخطيط الخرائطي لمقابر إقليم مروي بإيحاء من لونوبل[266]، الضوء على هذا النسيج الجنائزي المتصل على الضفة الغربية، مؤلفاً من مقابر ذات أحجام مختلفة وتحتل تقريبا كامل المساحة من الأرض الطينية للنيل. قبل فترة قليلة، البحوث حول القلاع الكبيرة في الإقليم ابتداءً من جزيرة مقرات وحتى الشلال السادس للنيل[267] ساهمت في إكمال عملية الحصر للمدافن التلّية المعروفة (حوش الكاب، حوش الشيطان، جبل أم مرّحي2، أبو سدر، أبو مرّيخ وكذا على جزيرة كارني)، بعضاً منها كان مجاوراً لمناطق سكنية وبناءات دفاعية.

4.2 البطانة والسودان الأوسط

يأخذ إقليم السودان الأوسط بطبيعته، والذي شهد ظهور آخر عاصمة كوشية، مكانة كبيرة جداً في المملكة. ولكن بعيداً عن أي صفة رسمية للمؤسسات المروية، يعزى هذا إلى سبب ازدواجية بيئته الطبيعية وسكانه الذين يميزون هويته الخاصة. فالنيل يعرّض، في ذلك العهد، الأراضي الصالحة للزراعة وتربية الماشية والماعز للفيضانات، بالرغم من أن هذه الأراضي كانت مغطاة بالسافنا شبه الغنية بالأشجار المعززة بشبكة من الوديان التي تسمح بالزراعة المطرية[268].

1.4.2 جزيرة مروي

عرفت بهذا الاسم لدى الكتّاب في العصور القديمة، جزيرة مروي محاطةً بضفة النيل من الجهة الغربية، ورافد عطبرة من الجهة الشرقية، والنيل الأزرق من الجهة الجنوبية. العديد من المقابر التلّيّة تم اكتشافها هناك منذ القرن التاسع عشر الميلادي[269]، معظمها قريبة من الأنهار، وأخرى على حافة الجبال، وبصورة نادرة، في باطن الأرض. دلالات تاريخية زمنية وجدت على السطح تشير إلى نشاط خلال العصور القديمة اللاحقة والانتقال ما قبل المسيحية، لكن بالنسبة للغالبية العظمى، لا تتوفر أية معلومات.

من الممكن مثلاً إدراج قائمة المقابر التلية التي توجد مرتبطة مباشرة بمراكز مروية، حيث يوجد سكان وأماكن للعبادة أو حفير قديمة للمياه. احتمال أن تكون هذه المواقع معاصرة هو أنه لا توجد أية مقبرة أخرى بالموقع. أيضاً، في المواقع المكتشفة (الزيداب، العالياب، المطمير، حجر العسل وجبل كريبة) يمكننا إضافة الأماكن التالية: أبودليق، جبل جحيد، الباسا، جبل خريك، جبل متروكة، قوز كفيتة، شق الأحمر، إسنابير، رفاعة، ود أبو حديدة، جبل ضايقة، نسب السامي، عد العداد، دارو، أم أسودة الحترة

---

[266] لونوبل 2006.
[267] درزويشكي وآخرون 2008؛ درزويشكي 2011، نفس المصدر 2012.
[268] باود 2010.
[269] بدج 1907، ص 225.

وشقلو. القائمة يمكن أن تطول إذا أضفنا إليها المواقع المشابهة ذات المدافن التلية المعزولة، التي لم يتم إدراجها ضمن أي فترة زمنية[270]. مثال الضفة بين الكدادة وشندي يمكننا في الواقع أن نعد حتى مقبرة تلية واحدة في كل كيلومترين تقريباً[271]، عليه فإن عشرات الآلاف من البناءات يجب حصرها على أرض أقل حفاظاً من الضفة الغربية. وأخيراً، على طول الحزام المتراجع عن الضفة الحالية والممتد حتى سفوح التلال الصخرية، مواقع أخرى جنائزية مروية تم مسحها خلال الاستكشافات التي أجريت على مسار الطريق الرابط بين الخرطوم وعطبرة[272].

تنتشر المدافن التلّية بصورة كبيرة، خارج الوادي، وحول الجبال مصاحبةً للسكان المستقرين على طول الوادي والآبار والحفائر. من بين هذه الأشياء، جدير بالذكر جبل صدّة بسبب حجمه. هذه المقبرة البعيدة جداً عن النيل، مغطاة على الأقل بالآلاف من الهياكل التلّية، مع اختلاف أشكالها والتي يمكن أن تشير هذه المرّة إلى سمة زمنية للدفن على مدى العديد من القرون.

عدد كبير من الحقول التلّية، كأُم محار، توجد بالمثل إلى الناحية الجنوبية، بالقرب من الضفة الشرقية للنيل الأزرق والوديان الصغيرة أو الخيران المرتبطة به[273]. تمثل أدلة أخيرة معترف بها لحدود غير مرئية كانت تفصل الأراضي تحت سيطرة البطانة عن أراضي المنطقة ذات التأثير الممتد على الأرجح حتى منطقة السد.

في جزيرة مروي، المقابر المجاورة للعاصمة، رغم الحفريات القديمة، إلا أنها في حاجة إلى تحقيقات أثرية جديدة لتحديث معلوتنا عن العمارة الجنائزية المستخدمة آنذاك والتحديد الزمني لبعض المقابر. المقابر الأقرب إلى المدينة، والتي تم مسحها جزئياً بواسطة غارستانغ في عام 1910 باسم معهد ليفربول للآثار، تبين لنا الغياب شبه التام للبنية الهرمية على كافة منطقة الدفن، معروفة الفترة الزمنية حالياً، والممتدة منذ القرن الأول ق.م وحتى القرن الرابع الميلادي[274]، ووجود مختلف الأشكال من المرتفعات التلّية.

ما تبقى من المدافن فهو معروف عموماً بمختصر "Beg" إشارة إلى بجراوية، وينقسم إلى ثلاثة مواقع: الشمال (ش) والجنوب (ج) والغرب (غ)، فالمقبرة الأولى وحدها لا تغطي سوى القبور الملكية والأميرية. في مقابر البجراوية (حوالي مئتي قبراً خاصاً وملكياً) والبجراوية (غ)، وجدت مقابر العائلة

---

[270] برادلي 1992.
[271] جوس وآخرون. 1986.
[272] مالنسون 1993؛ بانر 1997.
[273] فيزناندیز 2003.
[274] هنكل 1999، ص 505.

الملكية والبلاط الملكي مجاورة لمدافن تنسب أحياناً إلى القرن الثامن ق.م[275]، حيث لا تحمل بعضها إشارة واضحة إلى النخبة. من بين هذه المقابر، توجد أضرحة بسيطة ذات حفر عمودي أو أخرى أكبر مع مهابط منقوشة وغرفة دفن، تم اكتشافها عن طريق التل. ينتمي نموذج بج. غ. 126[276] إذن إلى هذه القبور المروية اللاحقة مشيراً إلى، حتى بالنسبة للنخب، الرجوع التدريجي إلى المدافن التلّية. تم تسهيل عملية المرور بفضل تقنية البناء المستخدمة في مروي "ركام الهرم" (النوعين 12 و 13 لدونهام) الذي يقوم على ملء البناء بالصخور المزين مع كتل غير متجانسة، معلناً بذلك نهاية العمارة الهرمية التقليدية.

2.4.2 في اتجاه البحر الأحمر وسكنة الكهوف

على الرغم من أن ساكنة الكهوف تم ذكرهم بواسطة العديد من الكتّاب في العصور القديمة، فعادات الدفن بالنسبة لهؤلاء السكان الذين يعيشون في أطراف المملكة في الصحراء الشرقية لم يتم ذكرها إلا في ديدور سيسيل، الذي يسترجع اليوم كتابات أغاثارشيد دو كنيد المفقودة:

> "عاداتهم الجنائزية مذهلة على أقل تقدير، إذ أنهم يلحقون جسم المتوفى بروابط نباتية تربط العنق بالأرجل. ومن ثم يضعون المتوفى على نتوء صخري أو أي سطح آخر، وجلب الصخور الأكبر حجماً والتي يمكن حملها على الأيدي بغرض التغطية الكاملة. وأخيراً، يضعون قرون الماعز ويغادرون دون الشعور بأية شفقة".
>
> **أغاثارشيد دو كنيد، ديودور دو سيسيل، المكتبة التاريخية، III، 33.**

يبقى هذا المصدر بالرغم من عدم دقته، خير دليل لظروف بناء المدفن التلّي، بالنسبة لسكان قريبين من مملكة مروي. وصف الجسم الملحق ينحدر من ممارسات نوبية قديمة تستقبل، منذ العصر الحجري الحديث، سلسلة من الهياكل العظيمة في مواقع تتجاوز القدرة الطبيعة لانقباض الجسد، والذي يعزى دائماً إلى وجود الأربطة أو الدفن في أكياس جلدية.

الطبيعة البدوية لهذه العشائر تتجلى بإشارة الكاتب عن مغادرة المشاركين الذين، بمجرد انتهاء مراسم الدفن، لا يبدو أنهم يعودون لمكان الدفن لممارسة أي من طقوس العبادة.

3.4.2 النوبة، الكاسو وأسطورة الغازي؟

---

[275] قبور تنتمي إلى مؤسسة تشغيل خلال السلالة الخامسة والعشرين. حدّثت الحفريات التي قادها غارستانغ عناصر معبد آمون التي تنتمي تاريخياً على الأقل إلى القرن السابع ق. م.

[276] دونهام 1963.

في العهد النبتي ومن ثم المروي، كان الملوك والسلاطين الكوشيين يلجؤون كثيراً إلى عمليات عسكرية خارج منطقة الوادي رداً على التهديد الدائم من قبل السكان المستقرين على هامش المملكة[277]. إراتوستين، القرن الثالث ق.م، والذي ذكره سترابون في الجغرافيا في القرن الأول الميلادي، يصف لنا الوضع التالي عن مروي: في الشمال والشرق يوجد البليمين و البجه بينما في الغرب، المنقسم إلى عدة عشائر، يعيش النوبيون.

لا زلنا في السودان الأوسط، ولكن هذه االمرّة في ما يتعلق بنهاية الفترة الكوشية، من مصادر أجنبية، شاهد الملك الأكسومي " إزانا" ، حيث تأتينا المعلومات حول هؤلاء السكان. بنيت حوالي 350 ميلادية بأكسوم، يوصف لنا تقدم الحملة الأكسومية المسلحة عبر الأراضي التي تمثل قلب المملكة المروية. بالطبع نكتشف هناك وجود قبائل كساسا بين عطبرة (تكازي) والبحر الأحمر، وعلى وجه الخصوص سكان النوبة غرب النهر، وحتى النيل الأزرق. يأتي عقب ذلك الكاسو الذين يسكنون على الوادي وحتى رافد نهر عطبرة، إلى الشمال منه تبدأ أراضي النوبة "الحمر". في الواقع يبدو أن "إزانا" قاد حملة ليس ضد المرويين وإنما ضد السكّان الذين يمثلون القوى النوبية الجديدة، عليه فهم يمثلون نوعاً من التهديد لمملكته[278]. عليه فإن وجود النوبة متفق عليه في الوادي في منتصف القرن الرابع الميلادي. مع ذلك، هل يمكن اعتبارها مجرد غزو خارجي بسيط في خطر إحياء ثقافة المادة: علوة؟ التحليلات التي أجريت على السيراميك في الفترة لاحقة أكدت في الواقع على الاستمرارية بين الفترة المروية والفترة ما بعد المروية، في استخدام المواد ومصدرها، بغرض إنتاج مواد أخرى مختلفة الشكل، انتظام لوحظ في طبيعة الطقوس الجنائزية ومراحلها والأثاثت المستخدمة في أدائها.

الكاسو، أو الكوشيين (المرويين في ذلك العهد)، في اتجاه أن يتم استبدالهم في أراضيهم على الوادي بالنوبة، ربما لم يشهدوا انضمام سكاناً أجانب إلى مملكتهم وإنما على الأجدر سكان يعيشون على الهامش من المجتمع نفسه النوبة[279]، يجب في الواقع أن يمثلوا قوة حية من العمل الجاد أو أن ينهب الكوشيون في الأراضي المتاخمة للوادي. الضغط المتواصل لهؤلاء السكان داخل المملكة (النوبة في الشمال واهل المغرة في الوسط) بواسطة الملكية استطاع أخيراً أن الإطاحة بالسلطة وتعزيز وصول مجموعات جديدة مماثلة قادمة من الغرب (كردفان؟). إذا كانت النوبة قد اعتمدت الشعائر الكوشية[280]، فهذا يرجع إلى الأرضية الثقافية والدينية القريبة نسبياً والمرتبطة منذ وقت طويل بالتاريخ المروي.

---

[277] تشهد تسجيلات إيريك أمانوت (كوة 9) التي تصف إستمرار المتمردين البدو ومجازرهم في الصحراء (ماكادام 1949، ص 50 – 67، ص ص 17 – 26).
[278] هينتزا 1967؛ فينيخ 2000.
[279] ريلي 2008 أ، ص 218.
[280] توروك 1999.

إذن فنسبة المدافن التلّية بعد المروية أو بعد الهرمية للسكان النوبيين محتملة منذ عهد إزانا بالنسبة للنوبة العليا والسودان الأوسط. وصولهم إلى رقعة النيل الأوسط أقرب إلى تحول المرويين للملكية على يد عشائر جديدة ذات أصول أجنبية من فكرة غزو شعب "بربري". تغيير السلطة بإيحاء من نخب جديدة دعت إلى إعادة تنظيم الأراضي والتجارة، وبالتالي أشكال مادية وثقافية جديدة. تغييرات، حيث الرجوع للمدافن التلّية في الطقوس الجنائزية الملكية والخاصة لم يكن سوى مجرد مثال.